

## الحجازيات

### دراسة في تطور فن شعري بين المشرق والأندلس

د. إبراهيم محمد محمد عبد الرحمن(\*)

#### مقدمة :

الشعر العربي - عبر تاريخه الطويل - ناله كثير من التطور، تبعاً للظروف المحيطة، والمتغيرات المؤثرة، فأصابه تطور في البناء والمضامين والأدوات الفنية، وقد أنتج هذا التطور ألواناً من الشعر تختلف عن سابقتها؛ طوراً في الأغراض، وطوراً في الشكل الفني، وطوراً في أدوات التشكيل، وهكذا... حتى رأينا في عصرنا الحديث أجناساً شعرية متعددة متجاورة مع الشعر الغنائي؛ كالشعر المسرحي، والشعر القصصي، والشعر الملحمي... إلخ.

وفيما يخص الأغراض الشعرية، فلقد أنتج التطور فنوناً من الشعر لم يعرفها الشعر العربي في أوائله؛ فمثلاً بعد ظهور الإسلام أطلت علينا فنون شعرية لم يعرفها الشعر الجاهلي، كشعر الغزوات والفتوحات، وشعر النقائض بين شعراء المسلمين والمشرّكين، والمدائح النبوية، والمولديات، والبيديات،... وغير ذلك.

ومن هذه الفنون الشعرية التي ظهرت في الأدب العربي بعد قرون من بزوغ فجر الإسلام بقرون فن سُمّي بـ(الحجازيات)، أوجدته ظروف عدة، تأثر بها الشعراء، ففاضت قرائحهم به.

---

(\*) مدرس البلاغة والنقد الأدبي بكلية التربية - جامعة قناة السويس.

## == الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري ==

و(الحجازيات) جمع مفردة: حجازية، نسبة إلى الحجاز، المكان المعروف في شبه الجزيرة العربية. وهو منطقة جغرافية وتاريخية تقع في غرب شبه الجزيرة العربية، وتضم المدينتين المقدستين: مكة المكرمة والمدينة المنورة. وقد اكتسب مكانة وقسية بما ضمه من هاتين المدينتين المقدستين.

ومما شد انتباهي إلى هذا الفن الشعري غزارة الإبداع فيه، وقلة الدراسات حوله، مع ما تحمله مضامينه من قيم، وما يتسم به من تجربة شعرية راقية، وعاطفة شعورية صادقة، وما يتمتع به من فنيات ترقى به في سلم الشعر.

فما وقعت عليه من دراسات حول هذا الفن للشعري العريق، ثلاثة أبحاث: البحث الأول- (الحجازيات) في شعر العصر العباسي الثاني، دراسة موضوعية فنية<sup>(١)</sup>، للباحثة العراقية: زهرة خضير عباس البطاوي. والبحث الثاني- قراءة نقدية في حجازيات الشريف الرضي، ليلة السفع نمونجاً<sup>(٢)</sup>، للباحث السوري: نادر عبد الكريم حقاني. والبحث الثالث- شعر الحجازيات في الأندلس والمغرب<sup>(٣)</sup>، لأستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكي.

وهذه الدراسات - كما سنرى - لم تتعرض لتطور المصطلح ولا الفن الشعري في التراث النقدي، كما أن تناولها لمفهوم المصطلح وتطور الفن الشعري جاء عابراً، لا يستند إلى تأصيل أو تحرير؛ ولذا فهذا البحث محاولة

---

(١) البحث: رسالة جامعية مقدمة إلى مجلس كلية التربية - ابن رشد - جامعة بغداد، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

(٢) البحث منشور في مجلة التراث العرب، مجلة فصلية محكمة، تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٨٩، محرم ١٤٢٤هـ - مارس ٢٠٠٣م، ص: ٥٤-٨١.

(٣) لبحث مطبوع ضمن أبحاث ندوة مكة في الشعر العربي، مؤسسة يمانى الثقافية، جائزة الشاعر محمد حسن فقي، ٢٠٠٨م، ص: ١٥٣-١٧٢.

===== د. إبراهيم محمد محمد عبد الرحمن =====  
لتأصيل هذا المصطلح النقدي، وتحرير مفهومه، ورصد التطور الذي مر به  
الفن الشعري بين المشرق والأندلس.

ولكي يتسنى لي ذلك فلا بد من التعريج - أولاً - على المصطلح في نشأته  
وتطوره في التراث العربي؛ فإن ذلك مما يعين على بلورة مفهوم (الحجازيات)  
ورصد تطور هذا الفن الشعري بين المشرق والأندلس.

\* \*

(١)

### مصطلح (الحجازيات)

لم يكن مصطلح (الحجازيات) معروفاً في القرون الأولى من تاريخ الإسلام، ثم بدأ يتردد في القرن الرابع الهجري في تراثنا الأدبي والنقدي. وقد وقعت على عدد من النصوص في كتب الأدب والتراجم تردد فيها المصطلح مرتبطاً بالشعر، بعض هذه النصوص تطلق المصطلح على كل ما قيل من شعر في أرض الحجاز، مهما كان غرضه، وبعضها يخصه بلون معين من ألوان الشعر. وأقدم نص وقعت عليه ربط المصطلح بفن الشعر يمكن رده - على وجه التقريب - إلى النصف الثاني من القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين؛ وذلك في كتاب (من غاب عنه المطرب) لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (٣٥٠-٤٢٩هـ = ٩٦١-١٠٣٨م)<sup>(١)</sup>؛ حيث يقول: «ومن أحسن الأشعار الحجازية قول عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي (٢٣-٩٣هـ = ٦٤٤-٧١٢م)<sup>(٢)</sup>».

---

(١) هو: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور الثعالبي، من أئمة اللغة والأدب، من أهل نيسابور. كان فراءً يخطط جلود الثعالب، فنسب إلى صناعته. واشتغل بالأدب والتاريخ، فنبغ. وصنف الكتب الكثيرة الممتعة. راجع: الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط ١٥، ١٩٨٠م) ١٦٣/٤، ١٦٤.

(٢) هو: عمر بن عبد الله بن عمرو بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي (أبو حفص، ابن أبي ربيعة) شاعر. ولد في الليلة التي توفي بها عمر بن الخطاب، فسمي باسمه، وكان يفد على عبد الملك بن مروان فيكرمه ويقربه، وغزا في البحر فاحترقت السفينة به وبمن معه، فمات فيها غرقاً وقد قارب السبعين أو جاوزها. من آثاره: ديوان شعر.

راجع: عمر كحالة: معجم المؤلفين (مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربي - بيروت) ٢٩٤/٧.

ويومٍ كتّوبٍ الطواهي سَجَرَتْهُ  
وَأَلْقَيْنَ فِيهِ الْجَزَلَ حَتَّى تَضُرْمَا  
فَذَفْتُ بِنَفْسِي فِي أَجِيحِ سُمُومِهَا  
وَبِالْعَيْسِ حَتَّى ابْتَلَّ مَشْفَرُهُ دَمًا  
أَوْمَلُ أَنْ أَلْقَى مِنَ النَّاسِ عَالَمًا  
بِأَخْبَارِكُمْ أَوْ أَنْ أُرَوِّدَ مُسْتَلَمًا<sup>(١)</sup>

ويبدو أن الثعالبي - هنا - يربط الشعر بالمكان الذي قيل فيه، دونما نظر إلى غرضه أو موضوعه؛ لأن الشعر قيل في أرض الحجاز، وقاله شاعر حجازي هو (عمر بن أبي ربيعة)، وإلا فإن الغرض في الأبيات هو لون من الغزل الذي يكشف عن حنين الشاعر وترقبه لأخبار المحبوب.

وتردد المصطلح كذلك في القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجريين، نجد ذلك في «كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب» لأبي الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن دحية الكلابي (٥٤٤-٦٣٣هـ = ١١٥٠-١٢٣٦م)<sup>(٢)</sup>.. ففي ترجمته للشاعر الأندلسي لبّال بن أمية (...-٥٨٢هـ = ...-١١٨٧م)<sup>(٣)</sup>، بعد أن ذكر شيئاً من حياة ذلك الشاعر،

---

(١) كتاب من غاب عنه المطرب (طبع بالمطبعة الأدبية في بيروت، ١٣٠٩هـ) ص ٣٩.  
(٢) أبو الخطاب عمر بن الحسن الأندلسي الظاهري المذهب: أديب، مؤرخ، حافظ للحديث، من أهل سبتة بالأندلس، ولي قضاء دانية مرتين، ورحل إلى تلمسان. ورحل إلى مراكش والشام والعراق وخراسان، واستقر بمصر، وتوفي بالقاهرة. من تصانيفه: الإعلام المبين في المفاضلة بين أهل صفين، والمطرب من أشعار أهل المغرب، والآيات البيّنات، ونهاية السؤل في خصائص الرسول، والنبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، والتتوير في مولد السراج المنير، وتبئيه البصائر في أسماء الخمر، والعلم المشهور في فضائل الأيام والشهور.  
راجع: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ٢٨١/٧، وخير الدين الزركلي: الأعلام، ٤٤/٥.

(٣) في (المطرب) هكذا لبّال، وفي غيره ابن لبّال بإضافة ابن، ولبّال هذا أو ابن لبّال، هو: أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن فتح، أبو الحسن، ابن لبّال، من بني أمية، من الأدباء الشعراء، أندلسي من أهل شريش، ولي قضاءها، فحمدت مآثره وآثاره، وسارت في العدل أخباره، وكان معتقياً بالقراءات مجوداً لها، وافر الحظ من الآداب، حافظاً -

## == الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري ==

أورد له أشعاراً في وصف محبرة وألغازاً.. يقول: «وله حجازية»، ثم يورد الأبيات:

متى أقولُ وقد كنتُ ركائبنا من السُرَى وارْتكابِ البِيدِ في البُكرِ<sup>(١)</sup>  
يا نائمين على الأكوارِ ويحكُمُ شُدُّوا المطيَّ بذكر الله في السَّخَرِ<sup>(٢)</sup>  
أما سمعتم بحاديننا وقد سَجَّعتْ وَرَقُ الحمايم فوق الأيكِ والسَّمَرِ  
هذي البشارةُ يا حجاجُ قدْ وجبتْ غداً تَحْطُون بين الرُّكنِ والحجرِ<sup>(٣)</sup>

هنا وصف لرحلة الحج المباركة، يظهر فيه مدى المعاناة؛ معاناة الركائب والراكبين، ويبرز فيه الشوق والحنين إلى البيت العتيق والأماكن المقدسة، ويزجي الشاعر إلى الحجاج بشارة بقرب حط الرحال فيهما.

ومعنى هذا، أن ابن دحية يخصص مصطلح (الحجازيات) بالشعر المرتبط بالمشاعر المقدسة والمناسك في أرض الحجاز.

---

== للتاريخ والنسب، متقدماً في علم العربية، عاقداً للشروط ضابطاً لها، له: كتاب في (شرح المقامات الحبرية) و(مقدمة في العروض)، وكان يقرض مقطعات من الشعر يجيد فيها، وبينه وبين جماعة من أدباء عصره مخاطبات أدبية نظماً ونثراً تدل على متانة أدبه.

راجع: ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري وآخرين (دار العلم للجميع، بيروت، لبنان) ص ٩٧. وأبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي: السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، القسم الأول، تحقيق: إحسان عباس (دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٦٥م) ص ١٦٩. والزركلي: الأعلام ٢٥٦/٤.

(١) السرى: سير الليل.

(٢) الأكوار: جمع كُورٍ، بالضم، وهو رَحْلُ الناقة بأداته، وهو كالسُرْجِ وآلته للفرس. المطيُّ واحدٌ وجمعٌ، يذكر ويؤنث: وهو ظهر الدابة التي تركب.

(٣) المطرب من أشعار أهل المغرب، ص ٩٩.

## د. إبراهيم محمد محمد عبد الرحمن

وقد كثر تردد المصطلح مرتبطاً بالشعر الذي يتناول المشاعر المقدسة والمناسك، ويكثر فيه ذكر مكة والمدينة، والحنين والشوق إلى الأماكن المقدسة وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، ففي القرن السابع الهجري وما تلاه؛ فجاء في كتاب (الذيل والتكملة) للمراكشي (٦٣٤-٧٠٣هـ=١٢٣٧-١٣٠٣م)<sup>(١)</sup> وهو يترجم لعلي بن محمد بن حسن الأنصاري (٠٠٠-٦٦٣هـ=١٢٦٥م)<sup>(٢)</sup>، فبعدما ذكر رسالة لهذا المترجم له أرسلها إلى قبر رسول الله أبان فيها عن عظيم الحب لرسول الله والشوق والحنين لزيارة قبره والرغبة في أداء مناسك الحج قال: «وأنشدت عليه لنفسه من قصائده (الحجازيات):

|                           |                            |
|---------------------------|----------------------------|
| كيف لا أندبُ عهداً بالحمى | عن جفوني طارق النوم حمى    |
| نزعتُ شوقاً إليه مهجةً    | لم يدع منها الهوى غير ذماً |
| يا ليالينا بذى الغور أما  | يتسلى القلب عنكن أما       |
| وعهوذا باللوى قد سلفتُ    | لم أزل أبكي عليهنّ دماً    |
| يصدقُ البرقُ فؤادي حسرةً  | فأنا أبكي إذا ما ابتسما    |
| ورياحُ الغورِ مهما نسمتُ  | أوقدتُ نارَ الجوى فاضطربا  |

(١) هو: محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، أبو عبد الله: مؤرخ أديب، من القضاة. من أهل مراكش، ولي القضاء بها مدة، ثم نحي لحدة في خلقه. وتوفي بلمسان. من كتبه (الذيل والتكملة لكتاب الصلة).

راجع: الزركلي: الأعلام ٣٢/٧.

(٢) هو: علي بن محمد بن حسن الأنصاري الاشبيلي، أبو الحسن الجباني: قاض أندلسي، من الكتاب، له نظم حسن. أصله من جيان. استقضى بحصن القصر (من بلاد إشبيلية) مدة. واستكتبه الرشيد المؤمني. ثم ولي خطة الأشراف على بلاد "حاحة" التابعة لمراكش. وشرع في الجمع بين تفسيري الزمخشري وابن عطية، ومات قبل إتمامه. توفي في المغرب.

راجع: الزركلي: الأعلام ٣٣٣/٤.

## الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري

لا تلوموني على الوجد فما يفقرُ المنصفُ باللوم فما  
كيف لي بالخيف يدنو ومنى فهما هم فؤاد فهما  
يا حداة العيس رفقا إنها شكت الجهد وبعد المرتنى  
فهي تستشق هبات الصبا كلما وافت بنجد علما  
أنسوها بالتذاذز إنها نغم تفهم تلك النغما  
طاويات لم يدغ منها السرى ودخيلُ الشوق إلا الأعظما  
نقصد الحوم من أعينها نطقا ليست تروى من ظما  
ويمدُ السيرُ من أعناقها خيزرانا حين تبدي الساما  
حملت أشباهها فهي بهم كقسي قد أقلت أسهما  
أوهن الوخذ قواهن فإن لاح نجد خلت فيها لهما  
مدت الأعناق لهما رملت بنقا الرمل وأكناف الحمى  
هاديات بالهوادي كلما ضلُ حاد جاذبته الخطما  
جنبواها مورد الماء فقد حرمتة أو تزور الحرما  
يا خليلي رويدا إنها لتعاني الشوق مثلي فاعلما  
أنشقاها نفحة نجديّة راحة المشتاق أن ينتسما  
وعداها بعدها ظفرا وسرورا يوم تأتي الموسما  
فيه تمحق آثارُ السرى وتباد البيد حتى تعدما  
إنها قد حملت شعنا إذا ما بكوا قلت غمام سجا  
ومنى أنوا اشتياقا وشكوا صدعوا الصخر وشاقوا الأعصما  
شربوا الدمع حميما وارتقوا ولذا عافوا الزلال الشبما  
لم يزموا العيس حتى حرما كل ماء أو يحلوا زمما  
لا تلمهم في البكا معتديا كل جفن شام أو هام همى  
حسرتا إن لم أكن في سلكهم وبهم مشتملا منتظما  
من عذيري من زمان قد مضى أقرع السن عليه ندما  
حسرتا إن لم أبلغ أمني قبل أن يأتي الردى مخترما



يا جميل اللطف واغفر زلتي وأقنني عثراتي متعباً  
 برّح الفقر إلى رحماك بي لا يداوي الفقر إلا الكرم  
 إن يكن نبي عظيمًا قد غدا عفوك الواسع منه أعظم  
 أثقلت ظهري ذنوباً صحت من تحتها وأسفاً والما  
 قرع الباب بها مسترحم لا يكن بابك عنه مبهما  
 إن حسبي في غدٍ أن اغتدي لاذاً بالمصطفى محترماً  
 بشفيع المذنبين المرتجى في غدٍ يشفع فيهم كرم  
 النبي الأبطحي المجتبي سيد الخلق الكريم المنتمى  
 الرسول الساطع النور الذي قد جلا نور هداة الظلما  
 المكين المعلي السامي إلى قاب قوسين أو أدنى مكرماً  
 خير خلق الله طراً سادهم بعلاء عرباً أو عجم  
 فعليه صلوات الله ما شئت الورق فشاقت مغرماً<sup>(١)</sup>

وجاء - أيضاً - على لسان صاحب كتاب (الذيل والتكملة) عند ترجمة أبي الحسن الرعيني<sup>(١)</sup> (٥٩٢-٦٦٦هـ = ١١٩٦-١٢٦٨م) ما نصه: «وكلام شيخنا أبي الحسن - نظماً ونثراً - بارع، ولضروب الإحسان جامع، وقد رأيت أن أختم رسمه بقطعة وقصيدة حجازيتين... وهذه القصيدة الحجازية أنشدتها عليه:

(١) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٢٩٣-٢٩٦.

(٢) أبو الحسن الرعيني: علي بن محمد بن علي، ويقال له: ابن الفخار، من بني الحاج: أديب أندلسي، من الكتاب العلماء. كان أبوه فخاراً. وولد هو وتعلم في إشبيلية. واستقضى على مذهب مالك في مورو، قرب إشبيلية (سنة ٦١٥) وغلبت عليه الكتابة، فتنقل في الأعمال الديوانية بين غرناطة وإشبيلية ومرسية. وتوفي بمراكش. له كتب، منها: برنامج شيوخه، سماه: الإيراد لنبذة المستفاد من الرواية والإسناد بقاء حملة العلم في البلاد، على طريق الاقتصاد والافتصاد، وله اقتفاء السنن في انتقاء أربعين من السنن، خرجها عن أربعين شيخاً. راجع: الزركلي: الأعلام ٣٣٣/٤.

حنيني إلى البيت العتيق شديد  
فيا ليت شعري هل يباح إليهما  
ومن لي أن أذعن إلى حرمي هدى  
وهل نافع لي ماء زمزم غلة  
وهل أنثني نحو الرسول لطيفة  
وألصق خدي من ضريح محمد  
وحيث استهلت بالدموع نواظر  
فما لي لا أسعى إليها مبادراً  
تحت ركابي نحوها عزمة امرئ  
يهم فيلقي بين عينيه عزمة  
فأقضي نماء النفس في عرصاتها  
وإن امرأ يقضي فريضة حجة  
وقد فاز بالحسنى ونال زيادة  
سلام على البيت الحرام وطيفة  
سلام محب كلما ذكر أرضها

وشوقي إلى وادي العتيق يزيد  
وصول فيحظى بالوصول عميد  
وهل لي على تلك البقاع وفود  
لها بين أحناء الضلوع وقود  
فيذنبو لقلبي من مناه بعيد  
بحيث تلاقت في ثراه خدود  
لها في سوى تلك الربوع جمود  
بقية عمر تنقضي وتبيد  
بمخاياه في ذات الإله وجود  
ويمضي مضاء السهم حيث يريد  
غريباً لديها والغريب شهيد  
وزورة قبر المصطفى لسعيد  
سعيد يواريه هناك صعيد  
يكر على ريعيها ويعود  
تبادرت الأجفان منه تجود

#### والقطعة الحجازية ... وهي:

ألا هل إلى البيت العتيق سبيل  
وهل لصد من ماء زمزم نغبة  
ومن لي أتاح الله سؤلي أن أرى  
فيا نجد أجدني بهبة نفحة  
ففي نفس منها عليل علالة  
ويا كعبة رص الخليل بناءها  
ثكلت فؤادي يوم أنساك أو أرى  
فلا زال بي شوق إليك مبرح

وهل لي في وادي الأراك مقيل  
يقل بها بين الضلوع غليل  
دموعي في بطن المسيل تسيل  
تمر بعطف الروض وهو بليل  
لقلبي وهل يشفي العليل عليل  
أما مسعدي يوماً إليك خليل  
إلى الصبر والسلوان عنك سبيل  
ولا فاتني وجد عليك طويل

د. إبراهيم محمد محمد عبد الرحمن

وقبلي بلال قال يشكو غرامه وقد شاقه ظلُّ هناك ظليل  
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادٍ وحولي إنخرَ وجليل<sup>(١)</sup>

وفي القرن السابع الهجري - كذلك - نقلى ابن سعيد المغربي  
(٦١٠-٦٨٥هـ=١٢١٤-١٢٨٦م)<sup>(٢)</sup> في كتابه (المُغْرِب في حِلَى المَغْرِب)  
يذكر - عند كلامه على أبي علي الحسن بن مضاء القرطبي - أن الحِجاري

(١) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي: الذيل والتكملة  
لكتابي الموصول والصلة، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٣٦٤-٣٦٦.  
والبيت الأخير ضمنه الشاعر من قول بلال بن رباح مؤذن الرسول عليه السلام، وكان  
حين هاجر إلى المدينة أصابته الحمى فكان يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادٍ وحولي أنخرَ وجليل  
وهل أردن يوماً مياه مَجَنَّةٍ وهل يبتنون لي شامةً وطُفيلٌ

راجع: ابن كثير: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد (دار المعرفة للطباعة  
والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م). ٣١٥/٢. وقال ابن هشام: شامة وطفيل  
جبلان بمكة.

(٢) هو: علي بن موسى بن سعيد المغربي الغماري الغنسي - بالنون - الأديب، نور الدين،  
ينتهي إلى عمار بن ياسر. ورد من الغرب، وجال في الديار المصرية والعراق والشام،  
وجمع وصنّف ونظم. وهو صاحب كتاب (المُغْرِب في أخبار أهل المَغْرِب)، وصاحب  
كتاب (المُشْرِق في أخبار أهل المَشْرِق)، وكتاب (الغراميات)، وكتاب (حلى الرسائل)،  
وكنوز المطالب في آل أبي طالب، و(المُرْقَص والمُطْرَب). توفي يوم السبت حادي  
عشر شعبان، سنة ثلاث وسبعين وست مائة.

راجع: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط  
وتركي مصطفى (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م)  
١٥٧/٢٢ وما بعدها.

## == الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري ==

نكر «أن بيت بني مضاء بقرطبة متوارث الحسب، وأن أبا علي لشعره ديباجة عراقية، ورقة حجازية»<sup>(١)</sup>.

وهذا النص، وإن كان لا يربط المصطلح بهذا اللون الشعري المرتبط بالمقدسات في أرض الحجاز، فإنه يربطه بأرض الحجاز والشعر الحجازي عموماً، ويشير إلى ما اشتهر عن هذا الشعر من رقة نجدها عند عمر بن أبي ربيعة، وجميل بثينة، وكثير عزة، وغيرهم.

وتردد المصطلح كذلك في القرن الثامن الهجري؛ فنذكر ابن أبي حجلة (٧٢٥-٧٧٦هـ-١٣٢٥-١٣٧٥م)<sup>(٢)</sup> عن نفسه في (ديوان الصبابة) قال: «وقلت من قصيدة حجازية:

خليلي روض الرقمتين طرازه إذا لمع البرق الحجازي مذَّهَب  
فلا تعجبا من سُخْبٍ دمعي إذا هَمَّتْ فما كل برق لاح للعين خُلَّب  
وقلت من أخرى حجازية:

جفني القريح على الخدين قد وكفا فحسبه ما جرى من أدمعي وكفا  
لا تعجبوا من وفا دمعي غداة جرى من عينيه ما جرى فالبحر فيه وفا

---

(١) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، حققه وعلق عليه: د. شوقي ضيف (دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة) ٩٦/١.

(٢) هو: أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد بن أبي حجلة التلمساني، المعروف بابن أبي حجلة (شهاب الدين، أبو العباس)، أديب ناظم، ناثر. ولد بتلمسان، وقدم القاهرة، ودخل دمشق، ثم قدم إلى الحج فلم يرجع وتوفي في ذي الحجة. ومن آثاره: أدب الغصن، أطيب الطيب، منطق الطير، وديوان الصبابة.

راجع: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م) ٣٢٢/١.

ما زلت أبكي على وادي العقيق إلى أن قيل هناك من عينيه قد رعفا»<sup>(١)</sup>

وقال أيضًا: «وقلت أنا من قصيدة حجازية:

يهددني بالهجر في كل ليلة أصدقُ فيها وصله وأكذب  
ولما وردنا ماء مدين قال لي وحق شعيب أنت في الحب أشعب»<sup>(٢)</sup>

وفي القرن التاسع الهجري، أورد يوسف بن تغري بردي (٨١٣-٨٧٤هـ=١٤١٠-١٤٧٠م) المؤرخ البَحَّاثَة من أهل القاهرة مولدًا ووفاء، في كتابه (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) عند ترجمته للشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الظاهري الدمشقي الشافعي (ت: ٧٥٥هـ)، قال: «وكان له نظم وينشئ المقامات؛ وله القصيدة الحجازية التي أولها:

سرت نسمة الوادي فأفكرت الصبَا ليالي منى فاتصب مدمعه صبًا»<sup>(٣)</sup>

ومع منتصف القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الهجريين، يلقانا ابن معصوم<sup>(٤)</sup> (ت: ١١١٩هـ=١٧٠٧م) يقول فيه: «ومن حجازيات الشريف الرضي (٣٥٩-٤٠٦هـ=٩٧٠-١٠١٥م)<sup>(٥)</sup>:

(١) ديوان الصبابة (الموسوعة الشاملة) ص ٦٨.

(٢) ديوان الصبابة، ص ٧٠.

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين (دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م) ٢٣٣/١٠.

(٤) هو: علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسيني الحسيني، المعروف بعلي خان بن ميرزا أحمد، الشهير بابن معصوم: عالم بالأدب والشعر والتراجم. شيرازي الأصل. ولد بمكة، وأقام مدة بالهند، وتوفي بشيراز. من كتبه: (سلافة العصر في محاسن أعيان العصر) و(رياض السالكين) و(أنوار الربيع)... وغيرها. وله ديوان شعر، وفي شعره رقة. راجع: الزركلي: الأعلام، ٢٥٨/٤-٢٥٩.

(٥) هو: محمد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن، الرضي العلوي الحسيني الموسوي: أشعر الطالبين، على كثرة المجيدين فيهم. مولده ووفاته في بغداد. له (ديوان شعر) مطبوع

أحبك ما أقام مني وجمع وما أرسى بمكة أخشباها  
وما انتفع الحبيب إلى المصلى يجزون المطي على وجاها  
وما نَحروا بخيف مني وكتبوا على الأنقان مشعرة نراها  
نظرتك نظرة بالخيف كانت جلاء العين بل كانت قذاها  
ولم يك غير موقفنا فطارت بكل قبيلة منا نواها  
فواها كيف تجمعا الليلي وآها من تفرقا وآها  
فأقسم بالوقوف على الال ومن شهد الجمار ومن رماها  
وأركان العتيق وبانيها وزمزم والمقام ومن سقاها  
لأنت النفس خالصة فإن لنا تكونيها لأنت إذا مناها  
نظرت ببطن مكة أم خشف تنعم وهي ناشدة طلاها  
فأعجبني ملامح منك فيها فقلت أبا القرينة أم تراها  
قلولا أنني رجل حرام ضمنت قرونها وكنت فاهها<sup>(١)</sup>

ولم يقتصر ذكر المصطلح على القدماء، بل تردد على لسان بعض المحدثين، فذكر حنا الفاخوري أن «الغزل عند الشريف أمانى وتحيات، والتياح وأشواق، وإرسال العبرات والنظرات، وخفقات فؤاد يروعه البين وتقطعه

مطبوع في مجلدين، وكتب، منها (المجازات النبوية) و(مجاز القرآن) مطبوع باسم (تلخيص البيان عن مجاز القرآن) و(مختار شعر الصابي) و(مجموعة ما دار بينه وبين - أبي إسحاق الصابي من الرسائل) طبعت باسم (رسائل الصابي والشريف الرضي) و(حقائق التأويل في متشابه التنزيل) و(خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب).

راجع: للزركلي الأعلام ٩٩/٦.

(١) السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني: أنوار الربيع في أنواع البديع، حققه وترجم لشعرائه: شاکر هادي شکر (مطبعة النعمان، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ١٣٨٨-

١٣٨٩هـ=١٩٦٨-١٩٦٩م) ٢١٦/٣.

د. إبراهيم محمد محمد عبد الرحمن

حسرات، وأسئلة ومناداة، وكل شيء ما عدا الفظاظاة والقباحة والقاذورات، والغزل عنده لفظ ناعم، وتعبير رقيق، وانسجام ساحر، ولهجة بدوية متقلبة على أكتاف الحضارة، في روعة خلابة، ولين يطأ الأفتدة ويستلب الألباب، وقد دعيت غزليات الشريف بـ(الحجازيات)؛ لأن أكثرها قيل في مواسم الحج أو في ذكراها»<sup>(١)</sup>.

ونذكر - أيضًا - الدكتور إحسان عباس عن الشريف الرضي في كتابه (تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين) بعد كلامه عن الجو البدوي الذي شاع في الشعر الأندلسي وإيراده نماذج على ذلك، قال: «وفي بعض تلك القصائد ما يذكرنا بذلك الاتجاه الذي انتحاه الشريف الرضي في قصائد (الحجازيات)، تلك القصائد المبنية على نوع من الحنين المبهم مع الإشارة إلى الأماكن البدوية»<sup>(٢)</sup>.

كما ذكر الدكتور محمد التونجي في كتابه (المعجم المفصل في الأدب) أن «حجازيات الشريف تفتحت عنها عبقرية الشاعر الشريف الرضي بفضل طريق الحج والموسم له، وقد جعلها الأقدمون من فرائد الشعر العربي؛ لأنها تفردت بغرائب من الأحاسيس، وبدائع من الابتكار، بلغت عدتها أربعين قصيدة، خصها في الحنين إلى موسم الحج، وقد كان ينظمها في مواطن لا يجوز فيها رفث ولا فسوق، وينشدها بين أقوام يصطبحون ويغتبقون بالتسبيح والتكبير والتهليل»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي - الأدب القديم (دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦) ص ٨٣٦.

(٢) د. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والموحدين (دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط ٦، ١٩٨١) ص ١١٦.

(٣) د. محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م) ص ٣٤٧.

وبعد هذا العرض، يمكن استخلاص الآتي:

يمكن أن تكون بداية ظهور مصطلح (الحجازيات) في أواخر القرن الرابع الهجري وبدايات القرن الخامس، وليس بالضرورة أن يكون هذا الظهور للمصطلح مرتبطاً بذلك الفن الشعري ذي الخصائص الفنية المعينة المرتبط بالحجاز وما فيه من مقدسات ونسك.

لكن المصطلح بدأ - في أوائل القرن السابع الهجري - يتبلور في هذا الاتجاه، فارتبط بالفن الشعري المتصل بالحجاز وما فيه من مناسك ومقدسات، وما ينشأ عن ذلك من وصف لها، وحنين وشوق إلى هذه الأماكن والشعائر. ثم شاع المصطلح بهذا المفهوم في القرون التالية. وبهذا استقر مصطلح (الحجازيات) بوصفه مصطلحاً نقدياً.

وبادئاً أن المصطلح أكثر تردداً في تراث المغاربة والأندلسيين؛ وذلك لأن شعر (الحجازيات) بوصفه فناً شعرياً ازدهر وشاع في المغرب والأندلس، والدليل على هذا أن الشعراء الذين ذكرناهم سلفاً ممن ربطوا الشعر بالحجاز ومقدساته مدحاً وحنيناً وتشوقاً جلّهم من الأندلسيين<sup>(١)</sup>؛ فكان طبيعياً أن يكثر تردد المصطلح في هذا التراث؛ إذ لم يُنسب إلى أحد من شعراء المشرق تعاطي هذا الفن الشعري - قبل الأندلسيين - سوى الشريف الرضي، وهذه النسبة - كما تظهر النصوص المتقدمة - جاءت متأخرة، فلم أقع على نص لأحد علمائنا المتقدمين نصاً على أن (الحجازيات) من اختراع الشريف الرضي، فأول من أشار إلى حجازيات الشريف - كما رأينا - هو ابن معصوم، وهو من علماء القرن الحادي عشر الهجري، ثم تواتر القول بأنها من اختراعه.

(١) مطالعة دواوين شعراء الأندلس، تؤكد بروز هذا اللون الشعري عندهم قبل غيرهم.



(٢)

## تطور مفهوم (الحجازيات)

لقد مر مصطلح (الحجازيات) في الشعر العربي - حسبما تكشف لنا النصوص السالفة - بمراحل ثلاث:

**المرحلة الأولى-** ارتبط فيها مفهوم المصطلح بالمكان، فهو يطلق على كل شعر قيل في البيئة الحجازية، بغض النظر عن الغرض الشعري، لا يهم أن يكون الغرض حديثاً عن مكة أو المدينة وما ترتبطان به من أماكن النسك والزيارة والشعائر أم مدحاً أم رثاء أم هجاء أم غزلاً أم وصفاً... إلخ، المهم أن يكون الشعر قيل في أرض الحجاز، أو أن الشاعر الذي أبدعه من أهل الحجاز، كما فعل أبو منصور الثعالبي حين تكلم عن عمر بن أبي ربيعة الشاعر الأموي الحجازي، فوصف مقطوعته الشعرية التي أورد لها بأنها من أجود الأشعار الحجازية. وكما ذكر ابن سعيد المغربي عند كلامه عن أبي علي الحسن بن مضاء القرطبي: أن «لشعره ديباجة عراقية، ورقة حجازية».

فيلحظ القارئ لهذين النصين، أن الثعالبي وابن سعيد يطلقان اصطلاح (حجازية) على كل شعر قيل على أرض الحجاز أو قاله شاعر حجازي، فمفهوم المصطلح - هنا - يرتبط بالمكان من حيث هو مكان، ولا ارتباط له بالموضوع الشعري أو الغرض.

وهذا المفهوم يغلب عليه التعميم من جهة، والتحديد من جهة أخرى؛ التعميم من حيث الغرض الشعري، فكل الأشعار التي قيلت على أرض الحجاز أو قالها شاعر حجازي في أي غرض من الأغراض فهي من (الحجازيات). وأما التحديد فمن جهة ربط هذا الشعر ببيئة الحجاز لا يتخطاها؛ ولذا يخرج من

## == الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري ==

هذا المفهوم كل شعر قيل عن الحجاز أو تعلق به ولم يُقَل في بيئة الحجاز أو قاله شاعر ليس من أهل الحجاز.

وهذا المفهوم هو الذي يتبادر إلى الذهن عند سماع مصطلح (الحجازيات)، وهذا المفهوم قد يبدو صحيحًا إذا ذكرناه بمعزل عن النصوص الشعرية التي عنيت بالحديث عن الحجاز وما فيه، مما أطلق عليه (قصيدة حجازية) أو (الحجازيات) في تراثنا النقدي.

المرحلة الثانية- ارتبط المصطلح بلون شعري قيل: إنه من ابتداء الشاعر العباسي المشرقي الشريف الرضي الذي عاش - كما مر بنا - في النصف الثاني من القرن الرابع وبدايات القرن الخامس الهجريين. فللشريف الرضي عدد من القصائد<sup>(١)</sup> ارتبطت بالحجاز وما فيه من أماكن<sup>(٢)</sup>.

وقد عرف غير واحد حجازيات الرضي؛ فعرفت الدكتور عاتكة الخزرجي بأنها: «قصص قلبية عاشها الشاعر بين مواكب الحسن الوافدة في ركاب الحجيج، تنقل عن عواطف الشاعر وأحاسيسه، وتكشف لنا عن مخاطر قلبه، فنراه أبدًا يترجح بين اشتياق ولهفة، ويتشكى من لوعة وحرقة، وهي تمثل

---

(١) مر بنا أن عددها أربعون قصيدة.

(٢) راجع نماذج منها في ديوانه (نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٩٦م)، الجزء الأول: صفحات: ٣٥، و١٧٢، و١٧٣-١٧٤، و١٨٠، و٢١٧-٢١٨، و٢٦٨، و٣٨٩، و٣٩٠، و٣٩٢-٣٩٣، و٥١٠-٥١١، و٥١١، و٥١٧، و٥٦١-٥٦٢، و٥٩٣، و٥٩٩-٦٠٠، و٦٥٣-٦٥٥، و٦٥٦، و٦٥٧-٦٥٨، و٦٥٩. والجزء الثاني، صفحات: ٧٦-٧٧، و٧٨، و٧٩ و١٠٧-١٠٨، و٢٧٢، و٢٧٣-٢٧٥، و٢٨٢-٢٨٦، و٤٧٤، و٤٧٥، و٤٨٤، و٤٨٥-٤٨٧، و٤٨٨-٤٨٩، و٥٠٤-٥٠٥، و٥٦٣-٥٦٤، و٥٦٦-٥٦٧.

لنا الحب العفيف أجمل تمثيل، وتعكس لنا آلام المحبين بمرآة صافية كلها سحر ورواء»<sup>(١)</sup>.

وقد عرفها الدكتور مصطفى كامل الشيبني بأنها: «مصطلح واضح الدلالة على مضمونه، يجري في الشهرة على نسق مع هاشميات الكميت، وخمريات أبي نواس، وزهديات أبي العتاهية، ويعني المقطعات الشعرية التي لها وجه اتصال بالحجاز مباشرة أو بالتأدية إليه، من نظم الشريف الرضي... وهي بالمفهوم الحديث (البوم) صور تذكارية على هيئة أشعار تجمع ذكريات زيارته الكثيرة لأرض الحجاز أيام إمارته الطويلة للحج وما قبلها حين كان يرافق أباه، أبا أحمد الموسوي، الأمير الذي سبقه، وأورثه الإمارة»<sup>(٢)</sup>. ثم يقول: «والحجازيات مصطلح اخترعه الشريف الرضي نفسه، وأثبتته في ديباجة عدد من قصائده التي جمعها بنفسه لنفسه وبناء على طلب نفر من المعجبين بشعره»<sup>(٣)</sup>.

وعرفها الباحث السوري نادر حقاني بقوله: «هي موضوع شعري وجداني ابتدعه الرضي، ذو طابع غزلي عفيف، تدور أحداثه من حيث المكان في بيئة الحجاز، ومن حيث الزمان فقد تقال في موسم الحج وغيره، وهذا الموضوع هو ضرب من ضروب الغزل ينسب إلى الحجاز، وهذه النسبة المكانية يراد منها في الشعر عند العرب نسبة فنية ذات طابع روحي أيضاً»<sup>(٤)</sup>.

(١) زهرة خضير عباس البطاوي: الحجازيات في شعر العصر العباسي الثاني، ص ١.

(٢) المرجع السابق، ص ١، ٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٢.

(٤) قراءة نقدية في حجازيات الشريف الرضي، ص ٥٥.

## الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري

وهذه التعريفات - أراها - لا تعبر تعبيراً دقيقاً عن كنه هذا اللون الشعري عند الرضي، ولا عن خصائصه وسماته الفكرية والفنية.

فالدكتورة عاتكة ترى أن حجازيات الرضي قصص قلبية عاشها الشاعر في مواكب الحج والأماكن المقدسة، ومعنى هذا أنها من شعر الغزل العفيف، ويوافقها في ذلك الباحث السوري نادر حقاني، ولا أوافقهما في ذلك تماماً؛ لأن هذه الحجازيات وإن كانت ذات طابع غزلي فإنها غزل من نوع خاص كما سنعرف، فليست غزلاً بالمفهوم الذي نفهمه عن الغزل.

وأوافق الدكتور الشيبني بأن مصطلح الحجازيات واضح الدلالة على مضمونه، يجري في الشهرة على نسق مع هاشميات الكميت، وخمريات أبي نواس، وزهديات أبي العتاهية.. لكنني لا أوافقه في أن المصطلح قد اخترعه الرضي؛ لأنني لم أقع على نص يدل على أنه أول من أطلق المصطلح على حجازياته. ثم إن التعريف غير جامع؛ إذ لم يتعمق طبيعة الفن الشعري.

وإذا أردنا تعرف مفهوم (الحجازيات) في شعر الشريف الرضي فلا بد من تعرف طبيعة الفن الشعري ذاته؛ من حيث خصائصه الفكرية والفنية.

وقد ذكر الباحث السوري نادر حقاني في بحثه الذي أشرت إليه سابقاً، بعض خصائصها الفكرية والفنية؛ فمن الخصائص الفكرية التي ذكرها الباحث: اهتمام الرضي في حجازياته «بالمكان؛ لما يحمله ... من قداسة دينية نابعة من إيمانه به»<sup>(١)</sup>؛ ولذا جعله محوراً «تدور من خلاله الأحداث التي تحمل معنى الشوق والحنين»<sup>(٢)</sup>. ومن الخصائص الفنية التي ذكرها الباحث لحجازيات الرضي أنها تتميز: بروح عذبة، ويظهر فيها مدى ما يكابده الشاعر من وجد

(١) المرجع السابق، ص ٥٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٦.

من فرط الشوق، وهي تبرز عفة الشريف؛ إذ إنه «يتغزل ولكن في تصون، وينسب ولكن في وقار»<sup>(١)</sup>؛ ولذلك في حجازياته «يغيب الحوار بين عاشقين؛ لأنه لا يعرف حوار العشاق؛ إذ إن حوارهم مع الزمان أو المكان أو الصحب أو الركبان أو الحيوانات، وهو يوجه خطابه إليها»<sup>(٢)</sup>، والسمة المسيطرة على حجازيات الرضي - يقول الباحث - «هي ذكر الفراق واليبين»<sup>(٣)</sup>، ولا تخلو «من الطابع البدوي»<sup>(٤)</sup>، وفيها «تكرار للمعاني»<sup>(٥)</sup>، و«الرمز هو خاصة أخرى»<sup>(٦)</sup> فيها، كما «تتمتع بجمالية في الأسلوب، ناتجة عن ذلك التنوع الأسلوبي المتعدد الدلالات، وهي لا تخلو من الصور على تعدد أنواعها وصفاتها»<sup>(٧)</sup>.

وإني أوافق في كثير مما ذكره، فمطالعة حجازيات الشريف الرضي تدلنا على أنه يكثر فيها ذكر الأماكن الحجازية، وبخاصة الأماكن المرتبطة بالمناسك في مكة المكرمة، كما يكثر من ذكر شعائر النسك. فيقول مثلاً:

|  |  |
|--|--|
| حَيَّ بَيْنَ النَّفَا وَبَيْنَ الْمُصَلَّى | وَقَفَاتِ الرِّكَائِبِ الْأَنْضَاءِ      |
| وَرَوَّاحِ الْحَجَّيجِ لَيْلَةَ جَمْعٍ     | وَبِجَمْعِ مَجَامِعِ الْأَهْوَاءِ        |
| وَتَذَكَّرَ عَنِّي مَنَاحَ مَطْيَبِي       | بِأَعَالِي مَنَى وَمَرْسَى خِبَائِي      |
| وَتَعَمَّدَ ذِكْرِي إِذَا كُنْتُ بِالْخَيْ | فِ لُطْبِي مِنْ بَعْضِ تِلْكَ الظُّبَاءِ |

(١) المرجع السابق، ص ٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٥) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٦) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٧) المرجع السابق، ص ٥٨.

قُلْ لَهُ هَلْ تُرَاكَ تَذَكُّرُ مَا كَانَ بِبَابِ الْقُبَيْبَةِ الْحَمْرَاءِ (١)

فهنا، يذكر الشاعر أماكن حجازية مكية: النقا، أعالي منى، الخيف، وكلها أماكن يرتبط الشاعر فيها بذكريات، وهو هنا يوصي خليله المرتحل إلى أرض الحجاز أن يتذكره فيها، ويذكره أمام محبوبته، ويذكرها بما كان بينهما من وصال. كما يذكر من شعائر نسك الحج: رواح الحجيج واجتماعهم في المشاعر، ويشير إلى المبيت في منى.

والأماكن الحجازية وشعائر النسك - غالبًا - ما تأتي بوصفها مقدمة لموضوع (الحجازيات) الذي ذكر بعض الباحثين - كما سبق - أنه موضوع غزلي عفيف، يغلب عليه الحنين والتشوق إلى المحبوب وذكريات الوصال معه (٢).

ولنقرأ للرضي قصيدته الآتية:

|  |  |
|--|--|
| وَمَا ضَمَّ ذَاكَ الْقَاعُ وَالْمَنْزِلُ الرَّحْبُ | حَلَفْتُ بِأَعْلَامِ الْمُحْصَبِ مِنْ مَنَى        |
| إِذَا مَا تَرَاخَتْ فِي أَرْمَتِهَا النُّجُبُ (٣)  | وَكُلُّ بَجَاوِيٍّ يَجْرُ زِمَامُهُ                |
| وَقَوْرُ النَّوَاحِي تَسْتَبْدُ بِهِ الْحُجُبُ     | وَتَرْجِعُ أَصْوَاتُ الْحَجِيجِ وَقَدْ بَدَا       |
| وَكُلُّ دَمٍ أَوْدَى بِجَمَّتِهِ الرُّكْبُ         | وَرَوْعَةُ يَوْمِ النَّحْرِ وَالْهَدْيُ حَائِرٌ    |
| سَوَاءٌ تَدَانِي الْبُعْدُ أَوْ بَعْدُ الْقُرْبُ   | لَقَدْ جَلَّ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَنْ قَلْبِي   |
| وَنَارُ غَرَامٍ بَيْنَ جَنْبِي لَا تَخْبُو         | وَكَيْ دَمْعُ عَيْنٍ لَا يُرْنَقُ سَاعَةً          |
| وَطَرْفٌ إِذَا سَكَنَتْهُ نَفَرُ الْقَلْبُ         | وَقَلْبٌ يَمُورُ الطَّرْفُ إِنْ قَرَّ فِي الْحَشَا |
| عَلَى النَّاسِ قَالُوا هَكَذَا يَفْعَلُ الْخُبُ    | وَجِسْمٌ إِذَا جَرَّدَتْهُ مِنْ قَمِيصِهِ          |

(١) ديوان الشريف الرضي ٣٥/١.

(٢) راجع: نادر عبد الكريم حقاني: قراءة نقدية في حجازيات الشريف الرضي، ص ٥٥.

وزهرة خضير عباس: الحجازيات في الشعر العباسي، ص ١.

(٣) البجاوي: نوع من الإبل.

فَمَا لِي عَلَى مَا بِي أَعْتَفُ فِي الْهَوَى  
وَيَرْمِضُنِي الْعَذْلُ الْمُورِقُ وَالْعَتَبُ  
عَلَى حِينٍ أَعْطَيْكَ الْوَفَاءَ مُصْرَحًا  
وَأَصْفِيكَ مَحْضَ الْوَدِّ مَا عَظُمَ الْخَطْبُ  
وَكُنْتُ إِذَا فَارَقْتُ دَارَكَ سَاعَةً  
صَمْتُ فَلَا جِدُّ لَدَيَّ وَلَا لِعَبٍ  
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنُ لَيْلَةً  
بِمِثَاءٍ يَلْطَى فِي أَبَاطِحِهَا التُّرْبُ<sup>(١)</sup>  
تَطْرُقُهَا مَاءُ الْغَمَامِ وَدَرَجَتْ  
بِهَا الرِّيحُ مُخْضَرًّا كَمَا نَشَرَ الْعَصَبُ<sup>(٢)</sup>  
وَهَلْ أَذْعَرَن قَلْبَ الظَّلَامِ بِفِتْنَةٍ  
تَهَاوَى بِهِمْ قَوْدُ السَّوَالِفِ أَوْ قُبُ  
وَهَلْ أَرْدَنَ مَاءَ وَرْدِنَا بِمِثْلِهِ  
جَمِيعًا وَفِي غُصْنِ الْهَوَى وَرَقَ رَطْبُ  
وَهَلْ لِي بِدَارِ أَنْتَ فِيهَا إِقَامَةٌ  
فَأَنْشُرَ مَا تَطْوِي الرِّسَالِ وَالْكَتَبُ  
سَكُوتُ الْمَعَالِي إِنْ سَكُوتِكَ سَاعَةٌ  
وَمَا أَنَا إِلَّا مُغْرَمٌ بِالْعُلَى صَبً<sup>(٣)</sup>

يواجهنا الرضي في هذه الحجازية بهذه النفحة الدينية الروحية؛ فهذا القسم الذي يتصدر الأبيات، هو قسم بشعائر وأنساك لها قدسيته: أعلام المحصب من منى، وترجيع أصوات الحجيج، ويوم النحر وذبح الهدى.. وذلك قبل أن يشرع في لون خاص من الغزل. فهذه الحجازية تتطوي على لون من الغزل المبهم، وهو غزل تكتفه حالة من الحنين الجارف، والوجد المتقدم، والشوق المحرق، غزل يشبه إلى حد كبير شعر الحب الصوفي، وهو لون من الشعر الروحي الوجداني الرمزي الرقيق، الحب فيه مثالي، مجرد عن رغبة الجسد، ونزوة الغريزة. وهذا الحب أخذ لدى شعراء الصوفية مظهرين اثنين؛ فمنهم من كانت لواعج شوقه تتجه إلى النبي الكريم فيعبر عنها بالمديح النبوي. ومنهم من كانت تسمو به الهمم وترقى إلى الخالق سبحانه؛ فيعبر عن ذلك بالغزل الصوفي أو بالخمريات الصوفية.

(١) الميثاء: الأرض السهلة، يلقى: يلزق.

(٢) العصب: شجر اللبلاب.

(٣) ديوان الشريف الرضي ١/١٤٠-١٤١.

## == الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري ==

وجَلَّ الغزل في حجازيات الرضي فيه نفحة من هذا الحب الصوفي، فالقصيدة التي بين أيدينا، يحس قارئها أنها ليست غزلاً عادياً، بل هي حبٌ غامر يملأ عليه جوانحه تجاه الله تعالى أو تجاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، وهو غزل تكتنفه حالة من الوجد المحرق، والشوق والحنين الأسرين، برز هذا من خلال معجم الشاعر وأساليبه وصوره؛ فمفرداته موحية بمدى الحب وتعلق القلب بالمحبوب (تداني، القرب، دمع، نار، غرام، قلب، الحشا، الحب، الهوى، الوفاء، محض الود، ...). وتتوَع أساليبه معبر عن حالة الوجد والشوق، فصَدَّرَ حديثه في الحب بالتأكيد مع الفعل الماضي في (لَقَدْ جَلَّ ما بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَن قَلِي سِوَاءِ تَدَانِي الْبُعْدُ أَوْ بَعْدَ الْقُرْبِ) للدلالة على رسوخ الحب وتغلغله في القلب في حالي القرب والبعد، وأنه حب يستحيل معه وقوع البغض والقطيعة، ثم عن طريق التقديم والتأخير (ولي دمع عين... وتوالي الاستفهام (هل أبيتن...؟ وهل أذعرن...؟ وهل أردن...؟ وهل بدار...؟) بعد (ألا) الاستفتاحية المقرونة بالتمني (ليت) عبر الشاعر عن مدى الشوق والحب الذي يملك عليه جوانحه نحو حبيبه. ويتأكد هذا من خلال الصور المتوالية: صورة الدمع الذي لا ينقطع أبداً كناية عن المكابدة والأسى، والصورة التشبيهية (نار الغرام المتأججة بين جنبي الشاعر)، وصورة العين الحائرة اللاعبة من سكون القلب إذا سكن، وصورة القلب النافر إذا العين سكنت، وصورة الجسم الناحل الهزيل من شدة ألم الحب، وصورة الشاعر في صمته حين يفارق حبيبه، كل تلك الصور تدل على شدة حب الشاعر لحبيبه.

والذي دعاني إلى القول: إن الغزل في حجازيات فيه نفحة من الحب الصوفي، أمور:

أولها- أن غالب شعراء الصوفية - كسمنون المحب المتوفى (٢٩٧هـ)، والحلاج المتوفى (٣٠٩هـ)، وأبو علي الروذباري المتوفى



د. إبراهيم محمد محمد عبد الرحمن  
(٣٢٢هـ)، وأبو بكر الشبلي المتوفى (٣٣٤هـ) - عاشوا في العراق،  
وخصوصًا بغداد - موطن الشريف الرضي - عاشوا قبل عصره وفي عصره،  
بل يكاد المؤرخون يجمعون على أن التصوف نشأ وترعرع في العراق، وقد  
تغنى هؤلاء في أشعارهم بالحب الإلهي وحب النبي الكريم فيما عرف بـ(الحب  
الصوفي)، فما الذي يمنع الرضي أن يكون متأثر في حجازياته بهذا اللون الغزلي  
عند شعراء الصوفية؟

ثانيها- أن مما يؤكد هذا التأثير من الشريف النشابه الذي يكاد يصل إلى  
حد التطابق بين الغزل في حجازيات الرضي وشعر الحب الصوفي، ويكفي أن  
تقارن غزل الرضي السابق بقول الشبلي:

أَقْلُّ ما بي فيك وهو كثير وأزجر دمعي فيك وهو غزيرُ  
وعندي دموع، لو بكيتُ ببعضها لفاضت بُحورٌ بعدهن بحور  
قُبُورُ الوري تحت التراب وللهوى رجالٌ لهم تحت الثياب قبور  
سأبكي بأجفانٍ عليك قريحة وأرنو بالحافظ إليك تُشير<sup>(١)</sup>

لتجد المعاني نفسها التي ترددت عند الرضي؛ الدمع الذي لا ينقطع،  
والجسم الناحل الهزيل الذي أضناه الحب والشوق والحنين إلى محبوبه، وكذا  
تجد الطبيعة المبهمة للغزل، ولولا القرائن الخارجية المحيطة بالشعر الصوفي  
لأضنانا البحث عن مقصود الشاعر الصوفي من غزله.

ثالثها- الشريف الرضي نفسه؛ فهو من آل البيت؛ حيث ينتهي نسبه إلى  
الحسين بن علي - رضي الله عنه - وهو متشيع، والتشيع نهج قريب جدًا من  
النهج الصوفي في الاعتداد بالروحانيات، وتمجيد آل البيت، والإغراق في  
حبهم؛ لذا لا يبعد أن تجد في شعره تلك النفحة الصوفية. ثم إن الرضي الفقيه

(١) ديوان أبي بكر الشبلي، جمعه وحققه وعلق حواشيه وقدم له: د. كامل مصطفى الشبلي  
(طبع المجمع العلمي العراقي، ١٣٨٦هـ-١٩٦٧م) ص ١٠٢.

## == الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري ==

العالم الفاضل يمنعه فقهه وعلمه وفضله من قول الغزل - وإن كان عفيفاً - في هذه الأماكن والأزمان؛ لأنه يعلم تمام العلم قدسية المكان والزمان، وأنه يجب عليه استغلال فرصة وجوده في المكان والزمان بما أمر الله تعالى من العبادة وأداء المناسك والدعاء.

وإذا كان الطابع الغزلي المبهم هو الغالب على حجازيات الشريف فإنه قد اهتم أيضاً بالمكان؛ لما يحمله المكان من قداسة دينية نابعة من إيمانه به، ولأن هذا المكان يزرع في نفسه الطمأنينة والتوازن الناتج عن كون الحجاز بأمكنثها تمثل المهد الروحي للفكر الإسلامي الذي تمثل به الشريف، ومن هنا جعل الشريف للمكان موقعاً مهماً في حجازياته، فقد استخدم المكان محوراً تدور من خلاله الأحداث التي تحمل معنى الشوق والحنين.

إذن، نستطيع القول بأن حجازيات الرضي: موضوع شعري وجداني، تعلوه مسحة روحية، تتردد فيه الأماكن الحجازية - المكية والمدنية - بكثرة، ذو طابع غزلي مبهم، يشبه إلى حد كبير شعر الحب الصوفي، ويغلب عليه الشوق والحنين، تدور أحداثه من حيث المكان في بيئة الحجاز، ويرتبط من حيث الزمان بموسم الحج.

المرحلة الثالثة الأخيرة- وهي المرحلة التي استقر عندها المصطلح، وارتبط فيها بلون شعري ذي معان ودلالات روحية دينية تتصل بمناسك الحج، والمشاعر المقدسة، وزيارة قبر الرسول، ومكة المكرمة والمدينة المنورة، والتشوق والحنين إلى هذه الأماكن وأداء هذه المناسك.

وقد ولع بهذا اللون الشعري الأندلسيون، ومن بعدهم شاع وانتشر، ونماذجه كثيرة لا تحصى في الشعر العربي في مراحلها كافة، حتى العصر الحديث.

ويستطيع الباحث في النصوص الشعرية السابقة التي قيل عنها: إنها من شعر (الحجازيات) والتي أثرت نقلها كاملة كما أوردوها؛ أن يتعرف أهم الخصائص التي يتسم بها شعر (الحجازيات).. فهذا اللون من الشعر يرتبط من حيث المكان بالحجاز وأمكنته، وبخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة؛ ولذلك يكثر فيه ذكر الحجاز وأمكنته.

وقد وردت أسماء أمكنة حجازية كثيرة في تلكم الأشعار التي أوردتها، فترددت في قصيدة علي بن محمد بن حسن الأنصاري المتقدمة أماكن؛ كالخيف ومنى ونجد وزمزم وغيرها. كما ترددت أمكنة حجازية أخرى في قصيدة المراكشي وقطعته الحجازيتين المتقدمتين أيضاً، كالبيت العتيق، ووادي العقيق، وزمزم، وقبر الرسول، والبيت الحرام، وطيبة (اسم من أسماء المدينة)، ووادي الأراك، والكعبة.

واستحضار هذه الأمكنة الحجازية في أية لوحة شعرية - غالباً - ما يستثير في نفس الشاعر لواعج الشوق إلى البلاد المقدسة، فعندما يقول المراكشي في قطعته الحجازية المشار إليها قبل:

|                              |                             |
|------------------------------|-----------------------------|
| ألا هل إلى البيت العتيق سبيل | وهل لي في وادي الأراك مقيل  |
| وهل لصد من ماء زمزم نغبة     | يقلُّ بها بين الضلوع غليل   |
| ومن لي أتاح الله سؤلي أن أرى | دموعي في بطن المسيل تسيل    |
| فيا نجد أنجدي بهبة نفحة      | تمر بعطف الروض وهو بليل     |
| ففي نفس منها عليل علالة      | لقلبي وهل يشفي العليل عليل  |
| ويا كعبة رصّ الخليل بناءها   | أما مسعدي يوما إليك خليل    |
| تكلت فوادي يوم أنساك أو أرى  | إلى الصبر والسلوان عنك سبيل |
| فلا زال بي شوق إليك مبرح     | ولا فاتني وجد عليك طويل     |

## == الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري ==

فإننا نستشعر مدى شوقه وحنينه إلى تلك الأماكن المقدسة التي أوردتها، سواء ما كان منها في مكة أم ما كان منها في المدينة، وقد انعكست تبايرح هذا الشوق وذاك الحنين في صفحة اللوحة الشعرية، سواء فيما يتعلق بالمعجم الشعري، أو الأساليب، أو حتى التصوير.

فمفردات المعجم تعبر تعبيراً دقيقاً عن حالة الشوق التي انتابت الشاعر، بل لا أكون مجافياً للحقيقة إذا قلت: إن المعجم لم يكن على هامش الصورة الشعرية التي جسدت هذه الحالة الوجدانية، وذلك أن كل مفردة من مفردات المعجم هي - في ذاتها - صورة، ولننظر - مثلاً - كلمة (صد) وما تشير إليه من شدة العطش الذي يجعل صاحبه يتلهف على رشفة ماء، وكلمة (نغبة) أي جرعة، وما تتحمل به هذه الكلمة من معنى القلة، فإذا ما تضام هذا المعنى إلى معنى كلمة (صد) فانظر بما ترجع الدلالة، وعما تكون عليه الصورة، فإذا ما تضام هذا إلى مفردات (هبة، نفحة، بليل) وكل منها تحمل معنى القلة، ومفردات (أنجد، يشفي، مسعد)؛ لانكشفت أمامنا الصورة جليلة معبرة عن شوق متأجج يتطلع إلى أي شيء يخفف من تأججه. فضلاً عن تلك المفردات، فهناك (غليل، دموع، تسيل، عليل، مبرح، وجد) وكلها مفردات ترسخ حالة الشوق المضطربة بين جوانح الشاعر.

فإذا ما جئنا إلى الأساليب وجدناها تعزف على ذات الوتر، فمفتتح اللوحة الشعرية جمع بين أداتين؛ أداة التحضيض (ألا) وأداة الاستفهام (هل)، ثم تكررت (هل) في أول الشطر الثاني من البيت، وفي أول البيت الثاني، ثم أتى بأداة استفهام أخرى (من) صدر بها البيت الثالث، ليعود إلى تكرار (هل) في الشطر الثاني من البيت الخامس، ثم استخدم (أما) في أول الشطر الثاني من البيت السادس.

إن التحضيض في (ألا) «طلب بحث» على ما قال ابن هشام<sup>(١)</sup>، وهو «أشد توكيذاً من العرض» على ما قال المرادي<sup>(٢)</sup>، وفي هذا إحياء بأن الحاض واقع في أمر شديد (وهو هنا مكابدة الشوق والحنين إلى المقدسات في الحجاز، وأولها بيت الله العتيق)، وهو يبغي الخلاص، ومن ثم فهو لا يعرض، بل يحث بشدة، لكن هنا الحث لشيء مبهم، ومن ثم فهذا يزيد من تبايرح الشوق.

ولما أردف (ألا) بـ(هل) ثم كرر (هل) مرتين، ثم أردفها بـ(من) دل ذلك على مدى الاستجداء والتوسل؛ بغية الخلاص مما هو واقع به من تبايرح الشوق، والخلاص في الوصول إلى الأماكن المقدسة: ألا هل إلى البيت العتيق سبيل؟ وهل لي في وادي الأراك مقل؟ وهل لصد من ماء زمزم نغمة...؟ ومن لي...؟

ثم إن ذكر (أما) التي هي «للعرض»<sup>(٣)</sup> تأكيد على حالة الاستجداء والتوسل التي استولت على الشاعر؛ رغبة منه في أن يجد من يمد له يد العون ليخرجه من نار الشوق التي تحرقه.

ولننظر إلى استخدامه أداة النداء (يا) التي استخدمها في أول البيت الرابع، وكررها في بداية البيت السادس.. هذه الأداة الموضوعية لنداء البعيد، والتي هي مظنة ارتفاع الصوت، وانفتاح الفم عند النطق بها واستطالة النطق، خاصة وأنها مكونة من ياء مفتوحة وألف قائمة، وهذا من شأنه أن يشي بوطأة الشوق والرغبة في الخلاص، فيأتي نطق الـ(يا) على النحو الذي وصفنا نوعاً من التنفيس.

(١) مغني اللبيب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله (دار الفكر، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م) ص ٩٧.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني، فخر الدين قباوه ومحمد نديم فضل (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م) ص ٣٨٢.

(٣) السابق، ص ٣٩٠.

## الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري

وقد وظف الشاعر أسلوب (التقديم والتأخير) الذي استولى على اللوحة الشعرية؛ لإبراز نار الشوق المتأججة بداخله، ورغبته في إطفائها، فقدم الخبر على المبتدأ: (إلى البيت العتيق سبيل، لي في وادي الأراك مقيل، لصد من ماء زمزم نغبة). وقدم خبر (ما زال) على اسمها: (وما زال بي شوق) وقدم شبه الجملة على الفاعل: (يقل بها بين الضلوع غليل، مسعدي يوما إليك خليل).

فتقديمه للأماكن الحجازية من خلال الاسم الظاهر (البيت العتيق، ووادي الأراك، وزمزم) دلالة على شوق الشاعر إلى هذه الأماكن. ثم قدم ما يعبر عن هذا الشوق، فقدم: (الصد) والصادي - في أصل اللغة - شديد العطش، وقد استعيرت الكلمة للدلالة على الشاعر المتشوق، والقرينة الجامعة الحرقلة التي يجدها كل من العطشان والمتشوق بداخله.

وتقديم (بي) على (شوق) فيه لون من التخصيص، فكأن (الشوق) خاص بالشاعر، وفي هذا تأكيد منه على ما يعانيه من الشوق. وقدم (بين الضلوع) ليكشف لنا عن تحرق داخله بهذا الشوق، الذي يرغب في الخلاص منه، هذه الرغبة التي تدل عليها المفردات المؤخرة: (سبيل، مقيل، نغبة، خليل).

وأما الصور الشعرية - وإن قلت - فهي تعمق الدلالة على حرارة الشوق في نفس الشاعر ورغبته في إطفائه، أو على الأقل التخفيف منه.

ومن هذه الصور: صورة الدموع التي تسيل في بطن المسيل (في مكة)، وصورة النفحة التي تمر بعطف الروض البليل، وصورة الوجد الطويل الذي لم يفت الشاعر.

فهنا صورتان معبرتان عن الشوق، بينهما صورة معبرة عن الأمل في إطفاء هذا الشوق. واللافت أن الصورتين الأولى والأخيرة تميلان إلى استعمال لغة حقيقية، في حين جاءت الصورة الثانية في لغة مجازية (فهي صورة

## د. إبراهيم محمد محمد عبد الرحمن

استعارية)، في إشارة دلالية ونفسية إلى أن الشوق واقع بالشاعر لا يدّعيه أو يفتعله، على حين أن الرغبة في الخلاص غير واقعة، والسياق اللغوي في الأبيات يؤكد ذلك ويعضده.

إن هذا النص - عن طريق بنائه على هذا النحو - ليكشف عن حنين جارف، وشوق عارم، يتأججان بين جوانح الشاعر، وذاك الحنين وهذا الشوق لا نكاد نجدهما على هذا النحو من التأجج إلا في شعر (الحجازيات).

وفي اعتقادي، أن مرجع بروز هذه الظاهرة في شعر (الحجازيات) على هذا النحو من الفاعلية، هو صدق العاطفة، فهي عاطفة بعيدة عن التزييف؛ لأنها تتعلق بالشعائر الدينية، التي يكون فيها الإنسان بعيداً عن التكلف.

وظاهرة معنوية أخرى في شعر (الحجازيات) جديرة بالبحث، وهي أن هذا الشعر يفيض بحب النبي - صلى الله عليه وسلم - ومدحه والتحرّق إلى زيارة قبره، ومن ذلك قول علي بن محمد بن حسن الأنصاري في حجازيته المتقدمة مادحاً:

|                           |                          |
|---------------------------|--------------------------|
| إن حسبي في غدٍ أن أغتدي   | لامذا بالمصطفى محترماً   |
| بشفيع المذنبين المرتجى    | في غدٍ يشفع فيهم كرمًا   |
| النبي الأبطحي المجتبي     | سيد الخلق الكريم المنتمى |
| الرسول الساطع النور الذي  | قد جلا نور هداة الظلما   |
| المكين المعتلي السامي إلى | قاب قوسين أو أدنى مكرما  |
| خير خلق الله طراً سادهم   | بعلاء عرباً أو عجماً     |
| فعليه صلوات الله ما       | شدت الورق فشاقت مغرماً   |

وقول أبي الحسن الرعيني في حجازيته المتقدمة في زيارة القبر الشريف:

|                            |                         |
|----------------------------|-------------------------|
| وإن امرأ يقضي فريضة حجه    | وزورة قبر المصطفى لسعيد |
| وقد فاز بالحسنى ونال زيادة | سعيد يواريه هناك صعيد   |

## == الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري ==

وقال ابن الجياب (٦٧٣-٧٤٩هـ - ١٢٧٤-١٣٤٩م)<sup>(١)</sup> في حجازية له

في حب النبي ﷺ :

ناشدتك الرحمن وافد مكة      ألا صرفت إليَّ طَرْفًا طامحا  
وإذا أتيتَ القبرَ قبرَ مُحَمَّدٍ      وحمدتَ سَعْيًا من سِفَارِكَ ناجحا  
وذُهِلتَ عن هذا الوجود مُغَيَّبًا      لما لمحتَ من الجمالِ مَلَامِحًا  
فاقرأ سلامي عند قبرِ المصطفى      وامسحَ بيمينِكَ الجدارَ مُصَافِحًا<sup>(٢)</sup>

هذه الأبيات في القصيدة جاءت بعد أبيات يصور فيها الشاعر الرحلة إلى الأراضي المقدسة، وما يلاقيه الراحلون والرواحل من عنت الطريق ومشاقه. وجاءت قبل أبيات يتحدث فيها عما فعله الراحلون بعد وصولهم الأراضي المقدسة؛ من أداء النسك والشعائر.

والأبيات تكشف عن حب عميق من الشاعر لرسول الله ﷺ ، ودليل ذلك: تلك المناشدة التي تحمل في طياتها معنى الاستجداء، ومعلوم أن الاستجداء لا يقع من الإنسان إلا مع الحاجة الشديدة، فلفرط حبه للنبي ﷺ ناشد وافد مكة - كل وافد - وناشده بالرحمن تأكيداً عليه، ألا يذهل - لكثرة الشواغل - عن تبليغ سلامه لرسول الله ﷺ ، ومسح جدار قبره مصافحاً.

---

(١) هو: علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن حسن الأنصاري من أهل غرناطة، يكنى أبا الحسن، ويعرف بابن الجياب. شاعر أندلسي غرناطي أنصاري، من شيوخ لسان الدين ابن الخطيب. له ديوان شعر.

راجع: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: د. محمد عبد الله عنان (مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م) (٤/١٢٥). الزركلي: الأعلام ٦/٥.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، (٤/١٣١)



وكان للأدوات والأساليب التي اتكأ عليها الشاعر دور في إبراز هذا المضمون الذي تتحمل به الأبيات؛ فقد عبر في بداية البيت الأول بالفعل الماضي (ناشدتك) المتصل بكاف الخطاب، ولم يقل: أناشد.. للدلالة على أن هذه المناشدة لم تكن وليدة لحظة، بل هي إلحاح دعوب، وأن المناشدة متوجه بها مباشرة إلى حاضر لا إلى غائب، هذا ما دلت عليه (كاف الخطاب).. ثم إنه قال: (ناشدتك الرحمن) ولم يقل: (ناشدتك الله)؛ لأن اسم الرحمن يتناسب وحال المناشدة والاستعطاف. وزيادة على ذلك حذف أداة النداء، فقال: (وافد مكة) ولم يقل: (يا وافد مكة) بما يوحي بتعجله في إبلاغ رسالته، فلم يشأ أن يطيل الكلام، فتوجه إلى من سوف يحمله الرسالة مباشرة، ودون أي وسائط، حتى ولو كانت بسيطة. ثم إنه استخدم بعد ذلك أداة التحضيض (ألا) التي تفيد الحدث، الحث على ماذا؟ على أن يعيره نظرة متأنية؛ حتى يعقل عنه مراده، ويبلغ عنه، ولا تنسيه الصوارف القوية عن التبليغ إذا هو قام عند قبر رسول الله، ثم جاء جواب الشرط فعل أمر معطوف عليه آخر (اقرأ... وامسح)، وفيهما معنى الحدث.

هذا الإلحاح الدعوب من الشاعر في أن يتحقق مطلبه، يكشف بوضوح عن ذلك الحب العميق لرسول الله، صلى الله عليه وسلم.

ومن الظواهر المعنوية الجلية في شعر (الحجازيات)، وتكاد لا تخلو منها قصيدة حجازية.. وصف الرحلة إلى الأراضي المقدسة، فالرحلة تمثل ظاهرة بارزة الحضور في شعر (الحجازيات).

وقد مرت بنا أبيات الشاعر لبال بن أمية، وكذا قصيدة علي بن محمد بن حسن الأنصاري التي يقول فيها:

يا حداة العيس رفقا إنها شكت الجهد وبغد المرتضى  
فهي تستنشق هبات الصبا كلما وافت بنجد علما

## الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري

|          |             |            |          |          |               |
|----------|-------------|------------|----------|----------|---------------|
| أنسوها   | بالتذاذ     | إنها       | نعم تفهم | تلك      | النغم         |
| طاويات   | لم يدغ منها | السرى      | ودخيل    | الشوق    | إلا الأعظم    |
| تقصد     | الحوم       | من أعينها  | نطفًا    | ليست     | تروي من ظمًا  |
| ويمد     | السير       | من أعناقها | خيزرانًا | حين تبدي | السما         |
| حملت     | أشباهها     | فهي بهم    | كقسي     | قد أقلت  | أسهما         |
| أوهن     | الوخد       | قواهن      | فإن      | لاح      | نجد خلّت فيها |
| مدّت     | الأعناق     | لما رملت   | بنقا     | الرمل    | وأكناف الحمى  |
| هاديات   | بالهوادي    | كلما       | ضل       | حاد      | جاذبته الخطما |
| جنبوها   | مورد الماء  | فقد        | حرمتة    | أو تزور  | الحرما        |
| يا خليلي | رويدا       | إنها       | لتعاني   | الشوق    | مثلي فاعلما   |
| أنشقاها  | نفحة        | نجدية      | راحة     | المشتاق  | أن ينتسما     |
| وعداها   | بعداها      | ظفرا       | وسرورا   | يوم تأتي | الموسما       |
| فيه      | تمحق        | آثار السرى | وتباد    | البيد    | حتى تعدما     |
| إنها     | قد حملت     | شعنا       | إذا      | ما بكوا  | قلت غمام سجما |
| ومتى     | أنوا        | اشتياقا    | وشكوا    | صدعوا    | الصخر وشاقوا  |
| شربوا    | الدمع       | حميما      | وارتووا  | ولذا     | عافوا الزلال  |
| لم يزموا | العيس       | حتى حرموا  | كل ماء   | أو يحلوا | زمزما         |
| لا تلمهم | في البكا    | معتديا     | كل جفن   | شام      | أو هام همي    |

والشاعر - كما يبرز في هذه الأبيات حجم المعاناة التي يعانيتها قاصدو البلاد الحجازية وركائبهم - يبرز كذلك شدة الشوق إلى حظ الرحال في هذه البلاد المباركة.

ولأن الرحلة إلى الحجاز شاقة؛ فإننا نجد من الشعراء من ينصح السائرين إلى هذه البلاد بالتجلد وتحمل المشاق والصبر وبذل الجهد؛ لتحقيق

الأمانى بالوصول الأماكن المقدسة، والفوز بهذا الفضل، بل ينصحهم بما هو واجب عليهم القيام به بعد الوصول.

يقول ابن دقيق العيد:

يا سائرًا نحوَ الحجازٍ مُشمرًا      اجْهْزْ فِدْيَتَكَ فِي الْمَسِيرِ وَفِي السَّرَى  
وَإِذَا سَهَرْتَ اللَّيْلَ فِي طَلَبِ الْعَلَا      فَحْذَارِ ثُمَّ حَذَارِ مِنْ خُدْعِ الْكُرَى  
فَالْقَصْدُ حَيْثُ النُّورُ يُشْرِقُ سَاطِعًا      وَالطَّرْفُ حَيْثُ تَرَى الثَّرَى مُتَعَطِّرًا  
قِفْ بِالْمَنَازِلِ وَالْمَنَاهِلِ مِنْ لَدُنْ      وَادِي قَبَاءَ إِلَى حِمَى أَمَ الْقَرَى  
وَتَوَخَّ آثَارَ النَّبِيِّ فَضَعَّ بِهَا      مُتَشَرِّفًا خَدْيَكَ فِي عَفْرِ الثَّرَى  
وَإِذَا رَأَيْتَ مَهَابِطَ الْوَحْيِ الَّتِي      نَشَرَتْ عَلَى الْآفَاقِ نُورًا أَنُورًا  
فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا رَأَيْتَ شَبِيهَا      مَذْكَرٌ كُنْتَ فِي مَاضِي الزَّمَانِ وَلَا تَرَى<sup>(١)</sup>

هذه هي أبرز الظواهر المعنوية تميز هذا اللون الشعري المسمى بـ(الحجازيات) عن غيره من ألوان الشعر الأخرى، فضلاً عن ذلك فإنه يتميز - كما هو ملاحظ من خلال النصوص السابقة - بعاطفة جياشة، وتجربة صادقة، ورقة اللغة الشعرية وتكسرهما، وجمال التصوير وبراعته.

وبناء عليه؛ يمكن القول: إن (الحجازيات) أشعار ترتبط بالحجاز - مكة والمدينة على جهة الخصوص - مدحاً وحنيناً وتشوقاً رحلة إليها أو رسالة تبليغ عن طريق الذين يقصدونها حجاً أو اعتماراً. وهي أشعار وجدانية الطابع، جياشة العاطفة، صادقة التجربة، في لغتها ورقة، وصورها براعة، تفيض بحب الرسول، ويغمرها الشوق والحنين إلى زيارته وزيارة المشاعر المقدسة، وهو

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٤٢/٤. ومحمد بن شاکر الکتبی (ت: ٥٧٦٤هـ): فوت

الوفيات، تحقيق: إحسان عباس (دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م)

## == الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري ==

شوق أذكاه البعد المكاني والزمني عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعن مهبط الوحي.

وأحسب أن اللون الشعري الذي يصدق عليه هذا المفهوم الأخير هو ما يمكن أن يطلق عليه مصطلح (الحجازيات)، وأن إطلاق هذا المصطلح على بعض قصائد عند الشريف لمجرد ارتباطها بأماكن حجازية، وإطلاقه على كل القصائد التي قالها شعراء حجازيون مهما تنوعت أغراضها.. هو إطلاق مجاوز؛ وذلك لأن هذا المفهوم الأخير هو الذي يمس الحجاز مساءً، وأن أكثر من أطلقوا المصطلح - بوصفه مصطلحاً نقدياً - أطلقوه على ذلك اللون الشعري المرتبط بالمقدسات والمناسك الحجازية.

\* \*

### فن الحجازيات بين المشرق والأندلس

يتضح للقارئ - من خلال ما سبق - وجود قدر كبير من الاختلاف بين حجازيات الرضي وحجازيات الأندلسيين؛ فحجازيات الرضي عبارة عن نفثات روحية صبت في قالب غزلي يقدم له أحياناً بذكر بعض الأماكن الحجازية - غالباً ما تكون أماكن مكية - في حين أن حجازيات الأندلسيين لم تأت في قالب غزلي، وتتعدد فيها المضامين، من: شوق إلى المقدسات، ومدح للرسول الكريم، وتطلع إلى زيارة قبره، أو إرسال رسالة له، ووصف للرحلة الحجازية، وبكاء وألم عند عدم القدرة على القيام بهذه الرحلة، ... إلخ.

وإذا كان الأمر كذلك، فهل نعتبر حجازيات الرضي المشرقي - وهو من شعراء القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي - بمنزلة التمهيد لحجازيات الأندلسيين، وأنهم تأثروا فيها بـ (حجازيات) الشريف الرضي، ثم طوروها واتجهوا بها وجهة جديدة؟

وأقول: هناك أمور تدعوني إلى ترجيح تأثر الأندلسيين بالشريف الرضي في هذا الفن الشعري، خصوصاً أنهم كانوا يرتادون مكة والمدينة ويجاورون فيهما في عصر الرضي وبعده، وقد طارت قصائده تلك في الآفاق، فما الذي يمنع من نقلها عنه، والإفادة منها، وتطويرها بما يتناسب مع ظروفهم؟

وأما الأمور التي دعتني إلى ترجيح هذا فهي:

الأمر الأول- نصّ غير واحد من الباحثين المعاصرين على أن الشريف الرضي هو الذي ابتدع فن (الحجازيات) في الشعر العربي<sup>(١)</sup>.

(١) راجع: إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والموحدين، ص ١١٦.

## == الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري ==

الأمر الثاني- أن مصطلح (الحجازيات) مرتبطاً بذلك الفن الشعري ذي الطابع الخاص، بدأ في الظهور أواخر دولة الموحدين، التي استمرت إلى أواخر القرن السابع الهجري<sup>(١)</sup>، أي أن ظهور المصطلح في الأندلس جاء متأخراً عن الشريف الرضي الذي عاش في القرن الرابع الهجري، ورجحت أن ظهور المصطلح في المغرب والأندلس كان في أوائل القرن السابع الهجري، أي جاء متأخراً عن ظهور حجازيات الشريف الرضي بما يزيد على قرن من الزمان.

الأمر الثالث- ما ذكره بعض الباحثين من أن ابن خفاجة الأندلسي المتوفى سنة (٥٣٣هـ=١١٣٨م)<sup>(٢)</sup> أقر بأنه نسج بعض قصائده على منوال

---

(١) راجع: ابن كثير: البداية والنهاية، حققه: علي شيري (دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ) ٣٦٣/١٣. يقول: "يعقوب بن عبد الحق أبو يوسف المريني سلطان بلاد المغرب، خرج على الوثائق بالله أبي دبوس فسلبه الملك بظاهر مراكش، واستحوذ على بلاد الأندلس والجزيرة الخضراء، في سنة ثمان وستين وستمائة، واستمرت أيامه إلى محرم هذه السنة، وزالت على يديه دولة الموحدين بها".

(٢) شاعر وقته، أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي الشاعر؛ ذكره ابن بسام في الذخيرة وأثنى عليه، وقال: كان مقيماً بشرق الأندلس، ولم يتعرض لممدح ملوك الأندلس، مع تهافتهم على أهل الأدب، وله ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان.

راجع: الذهبي: سير أعلام النبلاء (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م) ٥١/٢٠. وابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس (دار صادر، بيروت)

الشريف الرضي ومهيار المتوفى (٤٢٨هـ = ١٠٣٧م) <sup>(١)</sup>، ويدافع عن الرقة التي استمدها من محاكاة عبد المحسن الصوري <sup>(٢)</sup> والشريف الرضي ومهيار الديلمي <sup>(٤)</sup>.

وهذا الإقرار وذلك الدفاع يدلان على تأثره بالشريف الرضي، فما الذي يمنع غيره من الأندلسيين أن يكونوا قد تأثروا هم به أيضاً، ونهجوا نهجه فيما عرف بـ (الحجازيات)؟

ويبدو أن الشريف الرضي كان معروفاً لدى الأندلسيين منذ وقت مبكر، فيذكر ابن الخطيب أن أحمد بن عبد الملك بن سعيد الأندلسي المتوفى سنة (٥٥٩هـ) «نشأ محباً في الأدب، حافظاً للشعر، وذاكراً لنظم الشريف الرضي ومهيار وابن خفاجة وابن الزقاق؛ فرقت طباعه وكثر اختراعه وإبداعه» <sup>(٥)</sup>.

(١) مهيار بن مرزويه، أبو الحسن الديلمي، الفارسي. الشاعر المشهور؛ كان مجوسياً فأسلم، ويقال: إن إسلامه كان على يد الشريف الرضي أبي الحسن محمد الموسوي، وهو شيخه، وعليه تخرج في نظم الشعر. وهو شاعر كبير، في معانيه ابتكار، وفي أسلوبه قوة. وله ديوان مطبوع، ونظمه جزل حلو. توفي سنة ثمان وعشرين وأربع مائة. راجع: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤٧٢/١٧. وابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣٥٩/٥. والزركلي: الأعلام ٣١٧/٧.

(٢) راجع: إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والموحدين ص ١١٦. (٣) أبو محمد عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري، الشاعر المشهور، أحد المجيدين الأدباء، شعره بديع الألفاظ حسن المعاني، رائق الكلام مليح النظام، من محاسن الشام، له ديوان شعر. توفي يوم الأحد تاسع شوال سنة تسع عشرة وأربعمائة، وعمره ثمانون سنة أو أكثر.

راجع: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢٣٢/٣ - ٢٣٥.

(٤) راجع: إحسان عباس: المرجع السابق ص ١٠٥.

(٥) الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢١٤/١، ٢١٥.

## الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري

ومن الممكن - أيضاً - أن يكون تأثر الأندلسيين بحجازيات الرضي تأثراً غير مباشر، بل تأثر به قبلهم شعراء من المشرق، ثم تأثروا هم بدورهم بهم. فمثلاً، الشريف المرتضى الذي عاش في القرنين الرابع والخامس الهجريين ما بين عامي (٣٥٥-٤٣٦هـ=٩٦٦-١٠٤٤م) له قصائد فيها نزعة حجازية، يرسل فيها بالتحية إلى ساكن الحجاز - الرسول الكريم - ويحن إليها ويتشوق، ويذكر الأماكن والنسك، ويصف الرحلة إلى هذه الأرض المباركة<sup>(١)</sup>.

والمرتضى ممن طارت شهرته، وقد عرفه الأندلسيون؛ فذكر أبو الحسن ابن علي بن بسام الشنتريني الأندلسي المتوفى سنة (٥٤٢هـ) أن المرتضى «ممن سارت أخباره، وعرفت به أشعاره»، وأنه قد أخرج «من شعره ما لا يمكن لحاقه، ولا ينكر تبريزه وسابقه»<sup>(٢)</sup>، ومما أخرج له مقطوعات شعرية يغالب فيها الحنين إلى الحجاز ومن به، منها:

يا طيفُ زُرنا إن نشِطتَ لنا      فالركبُ بالأبواءِ قد نَزَلَا  
عُدَّ النَّهارَ مطيَّةً لَغَبَتْ      وخذ الظَّلامَ مع السُّرى جَمَلَا  
ودع التعلُّلَ فالحبيب إذا      ملَّ الوصالَ تطلَّبَ العِلا  
عجل سُرَّاك إلى مضاجعنا      وإذا خطرتَ فلا تغبِ عَجَلَا  
من أين يعلم من نحازره      قطع الخيالُ الحبلَ أم وصلَا<sup>(٣)</sup>

وإذا كان الأندلسيون عرفوا المرتضى وعرفوا أشعاره؛ فليس من المستبعد أن يكونوا قد تأثروا به كما تأثروا بالرضي قبله.

---

(١) راجع: ديوان الشريف المرتضى، تحقيق: محمد التونجي (دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٩٧م).

(٢) الذخيرة في أخبار الجزيرة، القسم الرابع، تحقيق: د. إحسان عباس (دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م) ٢/٤٦٥، ٤٦٦.

(٣) السابق، ٢/٤٧٠.



د. إبراهيم محمد محمد عبد الرحمن

ومهيّار الديلمي تلميذ الرضي الذي تخرّج عليه في نظم الشعر، والمتوفى سنة (٤٢٨هـ)، والذي اعترف ابن خفاجة الأندلسي أنه نسج على منواله ومنوال الرضي، مهيّار هذا له عدد من القصائد فيها النفس الحجازي<sup>(١)</sup>، من ذلك قوله:

|       |        |        |       |          |        |                             |
|-------|--------|--------|-------|----------|--------|-----------------------------|
| سل    | الوراء | يمتاحو | ن     | زمزم     | ماءها  | الشبها                      |
| من    | الماء  | الذي   | يردو  | ن        | يشفي   | أو يبلى ظما                 |
| ولم   | يرشف   | لنازله | وراء  | المأزمين | لمى    |                             |
| سقى   | الله   | المحصب | ما    | سقت      | أرضا   | نجوم سما                    |
| فحيث  | جرت    | دماء   | البُد | ن        | قلبت   | الدموع دما                  |
| بعينك | هن     | خيمات  | وما   | بك       | أن ترى | الخيمة                      |
| فيا   | زمناً  | بذاك   | العـ  | ش        | مرّ    | أما تعود <sup>(٢)</sup> أما |

ويبدو أن الأندلسيين التقطوا الخيط من هؤلاء المشرقيين سريعاً، ففي القرن الخامس الهجري نفسه بدأت تتردد في قصائدهم أشعار ترتبط بالحجاز، والمقدسات في مكة والمدينة، لكنها أشعار جاءت قليلة.

فابن اللبانة الداني الأندلسي المتوفى سنة (٥٠٧هـ=١١١٣م) قد هاجته الذكرى، فتراه يحن ويتشوق ويذكر المشاعر، فيقول:

|                                  |      |        |       |       |              |
|----------------------------------|------|--------|-------|-------|--------------|
| يا ذا الذي حجّ في عهد الصبا فمضى | عنا  | هلالاً | ووافى | نيراً | قمرأ         |
| أما الجمار فمن قلبي رميت بها     | يا   | من     | بآخر  | عمري  | كنت معتمرا   |
| صف المنازل لي كيف انتقلت بها     | فما  | نقلت   | لبدر  | بعك   | البصرا       |
| عن بئر زمزم حدثني فبي ظمأ        | وإنّ | في     | فيك   | منه   | الري والحصرا |

(١) راجع على سبيل المثال: ديوان مهيّار الديلمي (دار الكتب المصرية، ط ١، ١٣٤٩هـ-١٩٣٠م) ٣/٣٠٠-٣٠٢، ٣٠٩-٣١٢، ٣٢٢-٣٢٦، وغيرها.

(٢) السابق، ٣/٣٠١.

== الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري ==  
وشفع الحجة الأولى بثانية بان أقبل ثغرا قبل الحجر<sup>(١)</sup>

وابن السيد البطليوسي الأندلسي (٤٤٤-٥٢١هـ=١٠٥٢-١١٢٧م)،  
يدعو لمكة، ويعدد فضائلها، ويمدح من بعث فيها، ثم يحن ويتشوق إليها وما  
فيها من مشاعر:

|                                |   |
|--------------------------------|---|
| أمكة تفديك النفوس الكرائمُ     | ولا برحت تنهلُ فيك الغمامُ                  |
| وكفت أكفُ السوء عنك وبُغت      | مناها قلوبُ كي تراك حوامُ                   |
| فاتك بيتُ الله والحرمُ الذي    | لعزته ذلُ الملوك الأعظمُ                    |
| وقد رفعت منك القواعدُ بالتقى   | وشادتك أيدُ برّةٍ ومعاصمُ                   |
| وساويت في الفضل المقامَ كلاهما | تتالُ به الزلفى وتمحى المائمُ               |
| ومن أين تعدوك الفضائلُ كلُّها  | وفيك مقامات الهدى والمعالمُ                 |
| ومبعثُ من ساد الورى وحوى العلا | بمولده عبدُ الإله وهاشمُ                    |
| نبيُّ حوى فضلَ النبيين واغتدى  | لهم أولاً في فضله وهو خاتمُ                 |
| وفيك يمينُ الله يلثمها الورى   | كما يلثم اليمنى من الملك لاثمُ              |
| وفيك لإبراهيم إذ وطئَ الثرى    | ضخى قَدَمَ بُرْهاتها متقادمُ                |
| دعا دعوةً فوق الصفا فأجابه     | قطوفُ من الفجّ العميق وراسمُ                |
| فأعجبت بدعوى لم تلج مسمعي فتى  | ولم يعيها إلا ذكي وعالمُ                    |
| إلهي لأقدارٍ عدت عنك همتي      | فلم تنتهض مني إليك العزائمُ                 |
| فيا ليت شعري هل أرى فيك داعياً | إذا ما دعت لله فيك الغمامُ                  |
| وهل تمحون عني خطايا اقترفتها   | خطى فيك لي أو يعملات رواسمُ                 |
| وهل لي من سقيا حبيبك شربةً     | ومن زمزم يُروي بها النفس حائمُ              |
| وهل لي في أجر الملبّين مقسمُ   | إذا بُذلت للناس فيك المقاسمُ <sup>(٢)</sup> |

(١) مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم: موسوعة الشعر العربي الالكترونية، الإصدار الأول،  
٢٠٠٩م.

(٢) المصدر السابق.

وازدادت حركة الشعر في هذا الاتجاه في القرن السادس، ومع القرن السابع أصبحت (الحجازيات) ظاهرة في الشعر الأندلسي؛ ففي هذا القرن والقرون التالية له نجد لها نماذج تتد عن الحصر، ليس عن الأندلسيين وحدهم، ولكن - أيضًا - عند المشرقيين، ويكفي إلقاء نظرة على ديوان سلطان العاشقين ابن الفارض المصري المتوفى سنة (٦٣٢هـ)<sup>(١)</sup>؛ للتدليل على صحة هذا القول.

وهنا وقفة، تدل النصوص التي ذكرناها في بداية البحث على أن نشأة المصطلح مرتبطًا بالمقدسات الحجازية جاء مواكبًا نشأة الفن أو يكاد، فلبال بن أمية - كما في النص الذي نقلناه عنه، وهو أقدم نص وقعت عليه ارتباط فيه الشعر بالمقدسات والنسك - عاش في القرن السادس الهجري حتى عام ٥٨٢هـ، وقد ذكرنا أن المصطلح يمكن أن يكون بدأ ظهوره مرتبطًا بما في الحجاز من مقدسات ونسك في أوائل القرن السابع الهجري.

فالفن - على هذا - يمكن أن يكون ظهوره في النصف الثاني من القرن السادس الهجري، والمصطلح ظهر بعده من قريب في أوائل القرن السابع الهجري.

ويذهب أستاذنا الدكتور الطاهر مكي إلى أن فن (الحجازيات) بدأ يتردد مع أواخر دولة الموحدين، وهذه الدولة سقطت في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وذلك في سنة ٦٦٨هـ<sup>(٢)</sup>. يقول: «الحجازيات تطلق على الشعر الذي يرتبط بالحجاز مدحًا وحنينًا وتشوقًا رحلة إليها أو رسالة تبلغ عن

---

(١) راجع على سبيل المثال في الديوان (المطبعة الميمنية بمصر) ص ٢٣-٣١، وص ٩٠-٩٣، وص ١١٥-١١٦... وغيرها.

(٢) راجع: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس - عصر الموحدين، الجزء الخامس (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م) ص ٣.

## الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري

طريق الذين يقصدونها حجاً أو اعتماراً، وملتقى باللفظ متوارياً على استحياء في هذا الشعر مع أواخر دولة الموحدين، وكان الأندلس إحدى مقاطعاتها، ثم يمضي متأسلاً ومتسعاً على مهل، فإذا بلغنا القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي - وكانت دولة الموحدين قد سقطت في الأندلس والمغرب، وخلفتها دول أخرى يشيع استخدام اللفظ ويكثر في الأشعار التي أومأنا إليها»<sup>(١)</sup>.

وأحسب أن ما ذكرناه سلفاً، يجعل استنتاجنا وما ذهب إليه أستاذنا محل نظر؛ لأن ما ذكرناه يدل دلالة قاطعة على أن بدايات ظهور الفن في الأندلس كان في القرن الخامس الهجري، وبدأ يشيع في القرن السادس، وازدهر في القرن السابع وما تلاه.

ويبدو أن ظهور هذا الفن جاء مرتبطاً بالظروف والأحداث التي اكتتفت الأندلس آنذ، ففي القرن الخامس الهجري - تحديداً في سنة ٤٢٢هـ التي أعلن فيها الوزير أبو الحزم بن جهور سقوط الدولة الأموية في الأندلس بعد إفلاسها وانتشار الفتن والتفكك - بدأ عصر ملوك الطوائف<sup>(٢)</sup>، وكان الاختلاف والتفرق سمة من سمات هذا العصر، بل إن ملوك الطوائف كان بعضهم يستعدي النصارى على إخوانه ويعقدون مع النصارى عهوداً وأحلافاً ضد إخوانهم في العقيدة، ومن أجل شهوة سلطة تُراق على أرض الأندلس دماء المصلين. فضلاً عما ساد من فساد أخلاقي، وترف ومجون.

(١) شعر الحجازيات في المغرب والأندلس، ص ١٦٩-١٧٠.

(٢) راجع: العلامة دوزي: ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة: كامل

كيلاني (مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط ١، ١٣٥١هـ-١٩٣٣م) ص ٦،

وص ١٠.

وقد أحس الشعراء بالمرارة إزاء هذا الوضع، كما أنهم أحسوا بما ينتظر الأندلس من مصير محتوم، وهم عاجزون لا يستطيعون فعل شيء، ففروا إلى الحجاز؛ حيث توجد المقدسات وقبر نبيهم، بغرض التنفيس عما يعتور في صدورهم، لعلهم يجدون السلوى، منبهين الناس في الوقت نفسه إلى الأصول الأولى للمسلمين، هذه الأصول الثابتة الراسخة، لعلهم يصمدون أمام عواصف الفرقة وأنوائها.

كما ساعد الاغتراب والرحلة - في هذه الآونة - نحو المشرق للحج والعمرة أو الجلاء عن المدن الأندلسية بسبب الفتن والصراعات على ظهور هذا اللون الشعري.

إذن، فالظروف السياسية والاجتماعية التي تميزت بالفوضى وعدم الاستقرار كان لها أثرها الكبير في نشأة فن الحجازيات، يعبر من خلاله الشعراء عن آلامهم وآمالهم، يبتئون فيه معاناتهم وتطلعاتهم، إزاء ما يحدث في أندلسهم.

ويبدو - كذلك - أن عوامل أخرى كانت وراء نشأة الحجازيات في الأندلس، فالشعر في مكة والمدينة والمدائح النبوية نتج عنهما - كما يقول الدكتور الطاهر مكي - «مصطلحان نقديان ارتبطا بهما: الحجازيات، وشعر البديع. أما (الحجازيات) فمصطلح أندلسي، ذلك أن شعراء الأندلس ومن بعدهم الشعراء في المغرب كانوا يذكرون في البدء مكة والمدينة اسمين منفردين، ومع تطور المديح وكثرته، وتوالي الحجيج واتساعه، بدءوا يستخدمون لفظ الحجاز يعنون به المدينتين المقدستين والمشاعر المتصلة بهما، دون ارتباط بالتحديد الجغرافي أو الإداري أو السياسي»<sup>(١)</sup>.

(١) د. الطاهر مكي: شعر (الحجازيات) ص ١٦٦-١٦٧.

## الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري

وكذا التيار الصوفي الذي «طغى على المجتمع العربي في العهد الأيوبي أثر في نشأة (الحجازيات)، بوصفه ظاهرة اجتماعية خطيرة، شغل بها الناس، وتمكنت مشاعرهم وعواطفهم»<sup>(١)</sup>.

ثم إن «زيارة بعض الشعراء أرض (نجد والحجاز)، وهو الأمر الذي أدى إلى ارتباط هؤلاء بهذه الديارات ارتباطاً وجدانياً عميقاً، فأخذوا ينظمون قصائدهم ومقطوعاتهم الشعرية التي تكثر فيها المفردات التي تشير إلى أماكن وأودية وجبال في بلاد الحجاز»<sup>(٢)</sup>.

فضلاً عن شيوع فكرة المجاورة في الديار المقدسة، «فكان هذا النزوع إلى هذه الأماكن المقدسة بمثابة متنفس للشعراء الذين نظموا أشعارهم الحجازية في أثناء مجاورتهم لها، بل استمر هذا النظم حتى بعد عودتهم، تشوقاً منهم إلى الأيام الخوالي التي قضوها هناك»<sup>(٣)</sup>.

والتشوق أذكاه البعد المكاني إلى الحجاز ومقدساتها؛ ومن ثم يقول أحد الباحثين: «أرض الحجاز هي غالباً موطن الحنين في الشعر العربي عموماً، وفي الشعر الصوفي خصوصاً، حتى إن القصائد التي تجسد هذه العاطفة تسمى في النقد الأدبي عادة بـ (الحجازيات)، مثل حجازيات الشريف الرضي، ومثل حجازيات ابن الفارض»<sup>(٤)</sup>.

ثم أخذ الأندلسيون يطورون ويزيدون ويحذفون؛ حتى استوى فن الحجازيات على سوقه، فناً له أصوله وأسسها وقيمه المعنوية والفنية.

(١) المرجع السابق، ص ٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٥.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٤) د. مختار حبار: شعر أبي مدين التلمساني - الرؤيا والتشكيل (من منشورات اتحاد

الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢م) ص ٩١.

(٤)

### الخاتمة

وبعد هذه الرحلة مع مصطلح (الحجازيات)، يمكنني استخلاص

ما يلي:

١- أن مصطلح (الحجازيات) لم يكن معروفاً في القرون الأولى من تاريخ الإسلام، ثم بدأ يتردد في التراث العربي في النصف الثاني من القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين، ثم راح يكثر تردده في القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجريين وما تلاهما من قرون.

٢- والمصطلح أكثر تردداً في تراث المغاربة والأندلسيين؛ وذلك لأن شعر (الحجازيات) ازدهر وشاع في المغرب والأندلس.

٣- و(الحجازيات) من حيث تردده بوصفه مصطلحاً يطلق على لون شعري بعينه هو مصطلح أندلسي، لكن اللون الشعري الذي أطلق عليه المصطلح كانت أوائله مشرقية، ظهر عند الشريف الرضي قبل أن يشيع عند الأندلسيين.. أي أن هذا الفن الشعري الذي ارتبط بهذا المصطلح أسبق ظهوراً في المشرق عن الأندلس.

٤- وقد مر مصطلح (الحجازيات في الشعر العربي) بمراحل ثلاث: المرحلة الأولى- ارتبط فيها مفهومه بالمكان، فهو يطلق على كل شعر قيل في البيئة الحجازية، بغض النظر عن الغرض الشعري. والمرحلة الثانية- ارتبط المصطلح بلون شعري قيل بأنه من إبداع الشريف الرضي. والمرحلة

## == الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري ==

الأخيرة- وهي المرحلة التي استقر عندها المصطلح، وارتبط فيها بمعان ودلالات روحية دينية تتصل بمناسك الحج، والمشاعر المقدسة، وزيارة قبر الرسول، ومكة المكرمة والمدينة المنورة: مدحاً وحنيناً وتشوقاً ورحلة إليها أو رسالة تبلغ عن طريق الذين يقصدونها حجاً أو اعتماراً...

ويوصي الباحث الدارسين أن يولوا عنايتهم لهذا اللون الشعري الذي ما يزال يحتاج إلى تنقيب وبحث، للوقوف على أهم ظواهره المعنوية وخصائصه الفنية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،



## المصادر والمراجع

\*\*\*\*\*

- ١- د. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والموحدين (دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط٦، ١٩٨١).
- ٢- ابن بسام: الذخيرة في أخبار الجزيرة، القسم الرابع، تحقيق: د. إحسان عباس (دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- ٣- أبو بكر الشبلي: ديوانه، جمعه وحققه وعلق حواشيه وقدم له: د. كامل مصطفى الشبلي (طبع المجمع العلمي العراقي، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م).
- ٤- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
- ٥- ابن أبي حجلة: ديوان الصبابة - الموسوعة الشاملة.
- ٦- أبو الحسن الششتري: ديوانه، حققه وعلق عليه: د. علي سامي النشار، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط١، ١٩٦٠م).
- ٧- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (دار الفكر للطباعة والنشر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- ٨- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي - الأدب القديم (دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦).
- ٩- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: د. محمد عبد الله عنان (مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

## == الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري ==

١٠- ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس (دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م).

١١- ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري وآخرين (دار العلم للجميع، بيروت، لبنان).

١٢- العلامة دوزي: ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة: كامل كيلاني (مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٣٥١هـ-١٩٣٣م).

١٣- الذهبي: سير أعلام النبلاء (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).

١٤- الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط١٥، ١٩٨٠م).

١٥- زهرة خضير عباس البطاوي: الحجازيات في شعر العصر العباسي الثاني، دراسة موضوعية فنية (رسالة جامعية مقدمة إلى مجلس كلية التربية - ابن رشد - جامعة بغداد، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م).

١٦- ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، حققه وعلق عليه: د. شوقي ضيف (دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة).

١٧- السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني: أنوار الربيع في أنواع البديع، حققه وترجم لشعرائه: شاكِر هادي شكر (مطبعة النعمان، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ١٣٨٨-١٣٨٩هـ=١٩٦٨-١٩٦٩م).

١٨- الشريف الرضي: ديوانه (نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٩٦م).

د. إبراهيم محمد محمد عبد الرحمن

١٩- ابن أبي شيبة في مصنفه، دقق نصوصه وعلق عليه: سعيد محمد اللحام (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

٢٠- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركبي مصطفى (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).

٢١- د. الطاهر أحمد مكي: شعر الحجازيات في المغرب والأندلس (مطبوع ضمن أبحاث ندوة مكة في الشعر العربي، مؤسسة يمانى الثقافية، جائزة الشاعر محمد حسن فقي، ٢٠٠٨م).

٢٢- أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي: السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، القسم الأول، تحقيق: إحسان عباس (دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٦٥م).

٢٣- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين (مكتبة المثنى و دار إحياء التراث العربي، بيروت).

٢٤- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، تراجم مصنفى الكتب العربية (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).

٢٥- ابن الفارض: ديوانه (المطبعة الميمنية بمصر).

٢٦- ابن كثير: البداية والنهاية، حققه: علي شيري (دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ).

## الحجازيات - دراسة في تطور فن شعري

- ٢٧- ابن كثير: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد (دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).
- ٢٨- مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم: موسوعة الشعر العربي الالكترونية، الإصدار الأول، ٢٠٠٩م.
- ٢٩- د. محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م).
- ٣٠- د. مختار حبار: شعر أبي مدين التلمساني - الرؤيا والتشكيل (من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢م).
- ٣١- د. محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م).
- ٣٢- محمد بن شاعر الكتبي (ت: ٧٦٤هـ): فوت الوفيات، تحقيق: إحسان عباس (دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م).
- ٣٣- د. محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس - عصر الموحدين، الجزء الخامس (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م).
- ٣٤- محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس (مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م).
- ٣٥- محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب (دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى).
- ٣٦- المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، فخر الدين قباوه ومحمد نديم فضل (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).

د. إبراهيم محمد محمد عبد الرحمن

٣٧- الإمام مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي (دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م).

٣٨- ابن معصوم المدني: أنوار الربيع في أنواع البديع، حققه وترجم لشعرائه: شاكِر هادي شكر (مطبعة النعمان، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ١٣٨٨-١٣٨٩هـ=١٩٦٨-١٩٦٩م).

٣٩- أبو منصور الثعالبي: من غاب عنه المطرب (طبع بالمطبعة الأدبية في بيروت، ١٣٠٩هـ).

٤٠- مهيار الديلمي: ديوانه (دار الكتب المصرية، ط١، ١٣٤٩هـ-١٩٣٠م)

٤١- نادر عبد الرحمن حقاني: قراءة نقدية في حجازيات الشريف الرضي (ليلة السقح نموذجاً) (مجلة التراث العربي، العدد ٨٩، المحرم ١٤٢٤هـ- مارس ٢٠٠٣م).

٤٢- ابن هشام: مغني اللبيب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله (دار الفكر، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م).

٤٣- يوسف بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م).

\* \* \*

